وقت جيد للتحليق
مجموعة قصصية
بيتر ماهر
تويا

وَقْتٌ جَيِّدٌ لِلتَّحْلِيقِ

مَجْمُوعَةٌ قَصَصِيَّةٌ

*

*

بيتر ماهر الصغيران

رُوح

رُ

مَقْتَلُ الرَّأْسِ

"سرقنا أول رأسٍ والبقية تأتي".

قالها الخفير بصوتٍ عالٍ، ونبرةٍ تحملُ معانيَ الانتصار.

القريةُ مترقبةٌ.. ماذا سيحدث لفنانها الأول على يد العمدة وأعوانه.

الفنان "محسن الشريف"، اعتاد نحت التماثيل ومزجَ كلٍّ تمثالٍ بشخصية صاحبه.

رأى في العمدة أنه حمار يسوقه المأمور فنحت جسده على شكلِ حمارٍ، ورأسٍ بشريٍّ يُشبه العمدة. كان أبو الهول هو أهم مصادر فكرة محسن مع اختلافِ الزمن.

دار نموذجُ الحمار الجديد القرية، فلم يعد الأمرُ يُطاق أبدًا من سخريةِ الأطفال على عمدتهم؛ فكلما رأوه رددوا: الحمار أبوديل، الحمار أبوديل.. بل ميَّز محسن الحمار بذيلٍ أطول من المعتاد الطبيعي.

لصوصُ القرية، يخشون من ذلك اليوم الذي ينحتهم فيه، يتَّقون شرَّه خائفين من قتله الذي قد ينشرُ الفتنة، فالجميع يُحبه.

رفض الرشاوى ومحاولات لاستمالته والتي تمثلت في الخبز، وبعض قطع الجُبن وصفائح الزبد البلدي واللحم. ولم يبقَ للعمدة إلا التصرف في ذلك الرأس، قرَّر إرسال بعض خفره لسرقته ليلًا، فتسللوا وأزالوا الرأس تاركين الجسد بنفس الذيل.

وقف العمدةُ أمام أهل القرية بمعولٍ لتحطيم الرأس، يُعلن مقتله على مرأى ومسمعٍ من الجميع بمن فيهم محسن نفسه كشاهدٍ. ولكن... ما زال الجسد موجودًا.. تُرى هل سيتوقف محسن عن نحت الرؤوس؟!

السِّيرَةُ الذَّاتِيَّةُ لِحِمَارٍ

(1)

وصلَ لنتيجةٍ مفادُها أنَّ محله لم يعد يجلب زبائن، وأنَّ تغير أذواق "البني آدمين" من القديم للحديث هو السبب. أمامه حل هو التعلم من جديدٍ، تعلم أحدث القصَّات التي على الموضة، ولكن كيف يعود من صاحب محل له شنة ورنة إلى صبي يتعلم؟!

"عم حمدي"... صاحب صالون عماد حمدي الذي يقع على أول القرية. حتى من يعتمد عليهم من كبار السن نسبيًّا، تغيرت طباعُهم وصاروا يبحثون عن بعض الحداثة التي غزت القرية في الفترة الماضية،

وكأنّ القرية كلها صارت على نهج الحداثة. طالما استبعد حل التعلم وهناك حل تغيير النشاط، ولكن حتى تغيير النشاط يحتاج إلى تعلم، ومغامرة خوضه في مجالٍ جديدٍ غير محسوبةٍ، فالحلاقة بالنسبة إليه كل شيء، ورثها عن أبيه الذي ورثها عن أبيه.

جاء اقتراحُ صاحبه القديم، وهو الوحيدُ من ضمن قلائل ظلوا متمسكين بالحلاقة لديه، هو وأولاده القُصَّر. إلا أن بعض أولاده المراهقين أرادوا تغيير عم حمدي إلى القصَّات الحديثة. كانت الخلافاتُ تدبُّ بين الأب وأبنائه، كان بين نارَيْن حائرًا بينهم وبين وفائه لصديقه.

كان "عبد البر" يحلم بكوابيس تُصور كمية القهر التي يعيشها صديقٍ عمره "حمدي"، يستيقظ مفزوعًا يشربُ الماء، ويُفارقه النوم حتى الصباح، ويمكث ليفكر في حل. وفي إحدى الليالي جاءته الفكرةُ باقتراحٍ سحري..

تغيير النشاط، ولكن ليست المهنة نفسَها، تبقى الصنعة ولكن للحمير! صحيحٌ أنَّ الوسيلة ستتحول لمِقصٍّ أكبر، ولكنه سيُحافظ على نفس المُسمَّى الذي يتفاخر به "أسطى حلاق".

(2)

دخل إياه وهو يهش الذباب من على كرسي الزبون، في انتظار من قرر العودة إلى أصله ويقص شعره لديه، ففي الأوَّل كان هو الأوَّل والجميع صِبْيَة لديه تعلموا على يديه.

ألقى التحية، جلس يُحاول إخراج بعض الضحكات من فمه، ولكنها تخرج صفراء ليس لها معنى، ضحكات لا تُطرب الأذن، صوتية فقط. فبدأ عبد البر حديثه عن الاقتراح الجديد:

حمدي، عندي لكَ مفاجأة تُغيِّر النشاط وتحلق للحمير!

- سامحك الله يا صديقي أتهزأ مني؟!

- لا أهزأ، ولكن اسمع الاقتراح الجديد كله للنهاية! كم عدد حلاقي الحمير في القرية، والحمير ليس لها موضة تتغير، وأنت لديك سمعتك في الحلاقة والكل يعرفك ويعرف أباك رحمة الله عليه. ستعود لسابق عهدك؛ احسب كم الحمير الموجودة, ولا يوجد حلاق من نفس البلد، ولا يحضرون في مواعيدهم ويحسبون مصاريف سفرهم.

- لكن وإن وافقت يا "عبد البر"، أين خبرتي مع الحمير وأنا لا أفهم فيها شيئًا؟! الموضوع صعب.

- آه لو كان عندي حمار! لم أكن أبدًا أستخسره فيك. ليس لديَّ حمير ولكن نستطيع شراء واحدٍ من سوق البهايم.

- لو فشلت؟

- جرب لن تخسر، الحمار ثمنه بسيط وتستطيع بيعه إن خاب الأمر.

- اتفقنا يا عبد البر.

- اتفقنا.

(3)

في سوق البهائم وقف الصديقان يبحثان معًا عن الحمار المُراد، ولكن لا بد أن تكون سيرته حسنة لم يسبق له رفس صاحبه من قبل.

وبسؤال أحد البائعين عن ما هو مطلوب أشار عليهم بحمار، وشرع يمدح فيه؛ لا يأكل كثيرًا، لم يشاهده أحدٌ يرفس وحتى نهيقه على استحياء.

صمم "حمدي" على أن الحمار سيكون موضع تجربة لمدة أسبوع، إن لم يكن به الهدوء سيتم استبداله بآخر، وافق البائع لثقته في سيرة الحمار الحسنة.

من السوق إلى المحل ونظرات أهل القرية مذهولة، والتساؤلات.. ماذا أصاب "عم حمدي" ياتُرى؟ قلة عدد الزبائن أصابته بالجنون!

دخل الحمارِ ووضعه أمام المرآة، وعندما رأى الحمار نفسه بالمرآة؛ جُنَّ جنونه، بدأ في الرفس والنهيق، نَفَذَ حمدي بأعجوبة من تلك الثورة. وبعد ساعة، بدأت ثورة الحمار في الهدوء تدريجيًّا حتى بدأ يتأقلم على الوضع الجديد.

اقترب "حمدي" من الحمار بحذرٍ شديدٍ، بدا مترددًا في لمسه، وضع يده عليه بحذر، وطبطب عليه وتناقش معه"لن أوذيك".

(4)

هدية صاحبه إليه مقص حمير. بدأ "حمدي" في التجربة وأصاب المقص الحمار، ونزف ونهق بصوتٍ عالٍ، وأحيانًا يرفس، ثم يعاود القص والتجريب من جديدٍ، استمرت التجارب حتى تمكن من حلاقة شعره دونً إصابةٍ واحدةٍ، بل وبدا الحمار أكثر أناقة وجمالًا بين حمير القرية. خرج "حمدي" به مُفاخرًا بين الجميع، فاشتعلت سخريتهم منه خاصةً بعد أن تسربت أنباء أنه سيتحول لحلاق حمير، ولكنه لم يبالِ، وجلس في محله في انتظار أول زبون.

مرَّ اليوم الأول والثاني والثالث حتى مرَّ الأسبوع الأول بالكامل، تسربت الحسرة والندم إلى روحه.. كان بنو آدم يحضرون إليه زبونًا أو اثنين في اليوم. حاليًا لا يوجد ظل زبونٍ واحدٍ، بدأ يلوم نفسه ويلعن يوم اقتراح "عبد البر"، ولكنٍ في ظل ساعات الانتظار تلك، دخل أول زبون بحماريْن دفعةً واحدةً ومعنى ذلك سيكون الأجر مضاعفا.

بدأ الحلاقة ليخرج من تحت يده الحمار عريسًا تقبله أي حمارة! وتحسنت نفسيته بعد أن ظل يرفض أي عملٍ ثقيلٍ، صار يقبل بحماسٍ أكبر، وشاع في البلد كله أن نفسية الحمير التي تحلق عند "حمدي" تكون أفضل.

تحول محله إلى موقف انتظار، وبدأ في تصميم وابتكار قصات خاصة، تخطت شهرته القرية إلى القرى المجاورة وأصبحوا يطلبونه بالاسم، حتى جعله العمدة الحلاق الخاص لحميره.

أما حلاقو القرية فدخلت الغيرة إلى قلوبهم، وفكر بعضهم في تقليده وتغيير النشاط، لتأتي المهمة الأصعب في البحث عن حمارٍ ذي سيرةٍ ذاتيةٍ حسنة...

يَوْمِيَّاتُ المُعَلَبُونَ

قام (سليمان) من نومةٍ كئيبةٍ ولا يعرف معنى هذا العدم الذي شبَّ في أوصاله..

نظر إلى النتيجةِ وجد التاريخ 28 سبتمبر لسنة 1970

وبعد الفجر بقليل ذهب كالعادة إلى الغيط، نداء باطل الأباطيل الكل باطل يغلف الوجه..

بدا شيء ما مؤلمًا، يؤجج خياله مع كل ضربة فأسٍ، يقطع جزءًا من كيانه وينزف..

ضرباتٌ متتاليةٌ للأرض حملت كل الغل وكل القوة..

شرع في تفريغ كل ما في نفسه من طاقةٍ، أراد وضعها تحت رحمة الفأس، يا حبذا لو استطاع أن يُعلقها على مقصلةٍ.

في ساعة العصاري اليومية، لاحت ذكرى الليلة الماضية، بعدما فعل كل شيء مع امرأته كما نصحه أحدُ الأصدقاء في جلسات (الكركرة المعتادة)

ولا تخلو الشيشة من قطعةٍ من الحشيش، تصل إلى أعماق الدماغ وتسكن في تلافيفه، فعل كل شيء ولم يصل لشيء.

تدور ذكريات ليالي ماضية، كان فيها أكثر وصولًا للنشوة، فترسل الصور على شكل دوائر في كل جسده حتى تستقر في أعماقه السحيقة، يستدعيها وقت الحاجة.

يجري ريقه يفتح فاه ثم تنهيدة تخرج على هيئةِ صهدٍ من الصدر..

تأمل قوة جعلته يرى وجهه في مرآة الحمَّام، ثم بعدها بقليلٍ وقف بجسده أمام مرآة الغرفة، يثني ركبتيه ويفرد ذراعيه.

بالمساء تبدأ جلسات السهر، وعلى نفس أنغام الكركرة، الماء داخل الشيشة في رحلات صعوده وهبوطه مع احتراق الفحم.

دخل (سالم) بجلبابه الفضفاض، تبدو عليه ابتسامةٌ صفراء غير معتادةٍ، قبل عمل التعميرة في العقول.

فتساءل أهل الجلسة:

(سالم) يبتسم، أكيد وراك حاجة..

أخرج مجلةً مكتوبةً بلغةٍ أجنبيةٍ، تسللت أعينهم نحوها تبدو من الغِلاف ماهيتها، تظهر الأقدام النسائية عارية، والأصابع يزينها (المناكير الأحمر) والشفاه معجونة في (روج أحمر)..

وبعض من يعرف القراءة منهم، اكتشفوا أنها بالإنجليزية، وبالتحديد أمريكية كتبت عبارة باللون الأحمر فوق شعر إحداهن:

WELCOME IN U.S.A

(أمير) المجند الذي يقضي أيام الإجازة، تعجَّب من وصول تلك النوعية من المجلات إلى يد سالم..

فهو الذي يراها في المعسكر على هيئة صفحات، يجلبها بعض السكان من المدنيين، وتُهرب إلى داخل المعسكر، تُباع الصفحة بجنيه..

فتح (سالم) المجلة وانسابت كل النساء التي بها، بأثدائهن وأردافهن وملابسهن وبغير ملابسهن.

ثم قال:

بعت إمبارح مجلة لدسوقي عريس بلدنا، معايا منها خمسة اللي عايز، هنعمل مزاد، مجلات بلاد بره بقى (الأمريكاني).

تساءل (أمير) ساخرًا:

مش عارفين نجيب صواريخ أمريكاني جايبين صواريخ نسوان أمريكاني؟!

ضحكوا جميعًا، ثم أكمل أحدهم:

لا تقولي طيارات (فانتوم) ولا غيره معنا الأمريكاني كله..

مرَّت المجلة والعيون تغوص وتكتم الأنفس، تتحرك الأعضاء جميعها نحو الارتفاع حتى تكاد تمزق السراويل.

اضرب!! قالها (أمير)، اضرب كمان الأمريكان يا ريس، ثم أخذ نفسًا من الشيشة وكركر..

اقتل كل النسوان الأمريكان يا واد!

في كل ذلك (سليمان) جالس في ركنٍ يتجرع الأنفاس بمفرده ولم يشارك في الغوص مثلهم.

ثم وقف فجأةً وبدأ يقترب من (سالم)، وقال هامسًا إليه:

المجلة دي تلزمني..

- هتدفع كام؟

- عايز كام؟

- عشره جنيه.

- كتير.

- إنت شايف الرجالة عليها إزاي، لو عملت مزاد يمكن تجيب أكتر.

- اتفقنا، بكرة على القهوة بعد المغرب أجيب الفلوس تجيب المجلة.

- اتفقنا.

بعدما انفضت الجلسة لم يترك (سالم) دون توصية بألا يخلف ميعاده.

رحل منتشيًا يزهو في طريق عودته ولأول مرة منذ سنواتٍ، ينتظر شيئًا ما.

دخل البيت وظل يرقص كطفلٍ عثر على لعبةٍ غير قابلةٍ للكسر.

وفي الموعد المحدد حصل عليها، أخفاها بين طيات الجلباب حتى وصل البيت، بدأ يُقلب وما زالت الدهشة تنقله في تلك الصور مع السمراء والخمرية والبيضاء والزنجية، مع قطع الملابس الخفيفة والتي بدون ملابس، مع مختلف الأحجام والأشكال بين الدائرية والأسطوانية والمربعة.

مرَّت أيامٌ على هذا الحال، وكل شيء يأتي سريعًا ويذهب سريعًا، وتساءل:

أخ لو أقدر أغير وش الولية.. الراس بس والجسم هو هو..

لمعت الفكرة حتى اختمرت كانت عبارة عن حيلة:

عن نزع الصفحات من المجلة ولصقها بالصمغ على كيس أسود يُغطي بها وجهها ويربطه بإحكامٍ مع عمل بعض فتحات للتهوية..

وبعد ساعاتٍ بسيطةٍ شرع في التنفيذ.

الغريب في الأمر أن الزوجة وافقت دون شرطٍ أو قيدٍ، وهي التي لا حول لها ولا قوة.

في الليلة الأولى لتنفيذ الفكرة، تأمل أول صورة، واشتغلت الخيالات حتى أخذت وضعها المناسب، أشعله الحماس وشنَّ الهجوم الذي لم يتوقف، وهو يرى الجسد يتلوى، لا يسمع سوى أنَّات تناسب تلك الحالة.

وأخيرًا شعر براحة.

مع كل مرةٍ يُجامع يُغير، بين التي تبدو صفراء البشرة والهندية وأحبهن إلى قلبه التي تشبه اللبنانيات.

تتوسل المرأة أحيانًا وتدمع، يتركها تقول ما تشاء، وهو في لهفته في لصق وتجريب جميع الصور، حتى تفرغ ويشتري أخرى جديدة.

أمست فكرة سليمان تتفق مع البعض من أصدقاء الجلسة، ثم تم تداول الخبرات فيما بينهم، عن أنسب الطرق لتنفيذ تلك المتعة، أصبحت طريقةً مثاليةً يقولها الفرد منهم لأحبائه.

دخل في ليلةٍ ثم أيقظها من سبات النوم، وضع صورةً على كيسٍ وألبسها القناع، لم يفتح فتحتين ظنًّا أن كل شيء سينتهي سريعًا.

بدأت الاستغاثات في تلك المرة أقرب إلى الصراخ المكتوم، ثم ربط اليدين والقدمين، وفكَّر في طريقةٍ تصدر أصواتًا بطريقةٍ أكبر..

وقعت عيناه على عصا يسوقُ بها البهائم إلى الغيط..

أخذت بعض أفكار السادية تصعد إلى عقله وتُحرِّك أنامل أصابعه بالتنفيذ، شمل الضرب كل أجزاء الجسم تقريبًا، حتى ظهرت بعضُ التقرحات على الجسد والاحمرار شعَّ بالعينين، مرَّت دقائق من تلوي الجسد حتى سكن تمامًا، ظنًّا منه أنه سكون الاستسلام.

ثم نزع الكيس وكانت الجثة هامدةً مفتوحة العينين والفم.

فظل يصرخ:

يخرب بيت الأمريكان... يخرب بيت الأمريكان!

ظِلّ الرَّجُلِ الْغَائِبِ

ضربَ الترعةَ عدة مراتٍ بعصا خشبيةٍ غليظةٍ، وقفتُ على رصيف المحطة في بلدتنا، أتابع ضرب الترعة، أفهم أنَّ ضرب الترعة بتلك الطريقة لغرضٍ ما في نفس الصياد، ولكن لم أصِل عن نفسي للغرض، في تلك الخواطر التي تراودني وقت انتظار القطار، جاءني صوتُ شخصٍ وجدني مذهولًا من تصرفات الصياد:

السمك نائم ـ لا بد أن يصحو.

- نائم!

- لأجل صيدٍ أكثر وفرةً؛ سيصحو السمك وتخرج الشبكة بكميةٍ أكبر.

- حضرتك صياد؟

- لا، خبرة في بعض المسائل.

انتبهتُ أني أتكلم مع شخصٍ غريبٍ، ولا أعرف إذا كان من أهل البلد أم لا. أنا على ثقة؛ أول مرة أرى تلك القسمات الرفيعة، وهذا الوجه النحيل، وذلك الرأس الأصلع البيضاوي، وتلك القامة التي هي أطول مني بثلاثين سم تقريبًا أو أكثر. جاءني سؤالٌ آخر منه:

القطار المتجه لأسيوط متى يصل؟

- القطار في التاسعة كموعدٍ محددٍ، ولا أعلم هل سيأتي في موعده أم يتأخر.

- الساعة حاليًا كام؟

- الساعة التاسعة إلا عشر دقائق.

- آه... اقترَب.

ما زال واقفًا بالقرب مني، مرَّت علينا سيدةٌ تشحذ، أخرجتُ ما فيه النصيب إليها، وجدتُه يمنع يدي. ظلَّ ينهر فيها وأنا مأخوذٌ في ذهول! تلجَّم لساني عن النطق، ردَّ هو على أسئلة عيني: لماذا فعلتَ هكذا؟

- يا أستاذ أكيد تكذب، حرام عليك تساعد من ليس في حاجةٍ لمساعدة.

- مَن قال لكَ إنها ليست في حاجةٍ إلى مساعدة؟

- أثق من ذلك، ولعلمك أن تبحث لها عن عملٍ أفضل من التسول، أن تقف تبيع في محل، أو حتى تكنس الشارع، يكفي نظرات الناس إليها.

- قد تكون عاجزة عن العمل.

- معاك يا بيه "صلاح" عشرين سنة رايح من بحري إلى الصعيد والعكس، أعرفهم جميعًا، من كام يوم شحاذ لديه ولدان يعملان طبيبينِ، لا يمكن أن تتخيل، عرضا عليه كل وسائل المساعدة والراحة، لكنه رفض الراحة، كان رده: "أن الشحاذة أنفقت عليكما حتى أصبحتما طبيبين".. هل تعلم أنهما لم يستطيعا الزواج بسبب سمعة والدهما، وهناك حالات كثيرة بهذا الشكل.

- أطباء! بكل تأكيدٍ أدمن العادة فصارت داءً في دمائه.

- يا أستاذ مدُّ اليد شيء فظيعٌ، لا كرامة ولا حتى إنسانية، في وزارة في دولةٍ مسؤولة عنهم!

- فعلاً معاك حق.

- كل يوم يخترعوا حكاية؛ من تشحذ بورقةٍ، ومن تتلو عليك آياتٍ، الواحد تعب، اعملوا أي شيء أفضل من مدِّ اليد.

ظل يثرثر في نفس الموضوع ويعتذر عن الإطالة، ثم يثرثر ويعتذر. ولظروفٍ ما تأخر القطار، ومن كثرة حديثه عنهم، جاءني إحساسٌ أنه مخبرٌ سري يُلقي القبض على المتسولين! هيئته، طول قامته، كلامه الواثق من نفسه، معلوماته. وكان قراري الصمت أو التعليق بكلماتٍ قليلةٍ عما يقول.

- أنا مثلًا كنتُ أعمل لدى مقاولٍ كبيرٍ وقام بإجراء عملية زرع كبدٍ تكلفت ربع مليون جنيه.

ارتاح قلبي قليلًا فقد قال إنه لا يعمل مع الشرطة، ولكن قد تكون حركة تمويهٍ مباحثيةً.

- ظللتُ معه عشر سنوات حتى مات، وأبحثُ عن عمل. ابنتي محجوزةٌ بالمستشفى منذ الأمس وأنا ذاهب إليها للمنيا ومعي أربعة جنيهات فقط حتى الفطار لم أتناوله، هل طلبتُ مساعدةً من أحد.

- قطارك يتجه نحو البحري! فما الذي يجعلك تقف معي هنا على خط قبلي؟

- أقف معك لأتدفأ بالشمس، هل أزعجتك بكلامي؟

- لا، لا يوجد إزعاج.

أخرجَ من جيب بنطاله ورقةً قديمةً نسبيًّا، ويظهر أنها صورة من أصل، قال إنها صورة رسم قلب.

- بالأمس تبرَّع لنا أحدُ الخيرين أمثالك، بشراء بعض مستلزمات العلاج، أنا لا أمدُّ يدي أبدًا، حتى كوب الشاي لاَ أشرب، أنا ابن ناس!

- ربنا معاك يا عم "صلاح" ويشفي ابنتك.

ثم ظل يُثرثر من جديدٍ في أحاديث عن أهل الخير حتى وصل لدول الخليج، فحكى أن المطرب "محمد عبده"، أعطى أثناء موسم الحج عشرين ألف ريال لأحدهم، ثم طلب مني أن أحسب كم يُساوي هذا بالمصري، ثم حكى عن طموحاتٍ كانت سابقةً للسفر إلى الخارج، واستكمل حديثه عن خير أهل الطرب.

- زمان كنتُ أحبُ "أم كلثوم"، الشهر القادم ذكرى وفاتها، وبعدها بشهرٍ ذكرى وفاة "عبد الحليم حافظ"، وقبل الست بسنة تُوفي "فريد الأطرش".

أسمع أنا كل تلك التواريخ وأصير مذهولًا من حفظها.

تركني لدقائق ليسأل عن تأخر القطار، رحل عني إلى رصيف البحري المليء بالشمس أكثر من القبلي بمراحل. ومن على الرصيف الآخر قال: "قطارك قادم بعد خمس دقائق" وجلس على مقعدٍ هناك تحت الشمس.

جاءني شخصٌ يسأل لماذا تأخر القطارُ، وإنه لا يوجد شيء مضبوط، وبعد الحديث أعاود النظر إلى المقعد الذي جلس عليه عم صلاح.. فلا أجد له أي أثرٍ أو ظل! اختفى تمامًا.. تبخر قبل أن يأتي قطارُ بحري حيث ابنته المحجوزة في المستشفى، ثم قلت لنفسي:

أربعة جنيهات فقط.. لا تكفي أبدًا!

تَخَارِيفُ مَا بَعْدَ السُّطْلِ

كانت الجثةُ ملقاةً هناك! اكتشفها "عوض الجزار"عند مدخل القرية، سمع أصواتَ البوم تُحلق وتحومُ حول الشجرة المجاورة لها، عوى ذئبٌ ولاح يقتربُ من بعيدٍ شيئًا فشيئًا، فأخرج بعضَ أعواد الكبريت وأشعل بعض الحطب.

ضاع بعضُ السطل من دماغه بعدما أنهى الحشيش الذي بحوزته حتى آخر نفَس..

اقترب من الوجهِ أكثر ليتحققَ منها؛ ربما تكون إحدى بنات أو نساء القرية ولكنه لم يعرفها على الإطلاق.

الحل الوحيد الآن تبليغُ ولي الأمر بالموضوع، فهو الجهةُ الوحيدةُ الرسميةُ. استطاع أن يفكر في ذلك رغم عقله المشوش، وانطلق نحو بيت العمدة.

مرَّت دقائقُ حتى ظهر على مسرح الأحداث "سعد الطبال"، كان عائدًا من إحياء فرح ابنة أحد أعيان القرية المجاورة، ليجدَ هذا المنظر في انتظاره! اقترب فلم يعرفها، تفرَّست عيناه بنهم في كل هذا الذهب، لمع على الصدر والأيدي متموجًا وسط اللون الأحمر مخترقًا ثقبين صغيرين في شَحمتيْ الأذن. زغلل الأصفرُ عينيْه، تلفَّت يمينًا ويسارًا، لا من أحد هنا أو هناك، جرَّدها منه ثم ركض بكل قوةٍ مبتعدًا عن الجثة.

آثار الذبح على الرقبة؛ تدلُّ على ذبحها ببطءٍ وكأنه انتقامٌ منها، الدماء أغرقت المنطقة العلوية من ملابسها، أما بقيةُ الثوب فلم تصل إليه الدماءُ، كان مرصعًا بالترتر.

مرَّت "زينات" بائعة القماش التي تجول بالقرى، وفي العادة تعودُ في أوقاتٍ متأخرةٍ بالليل، لمحت من بعيدٍ شيئًا يلمع ليلًا، ومثل هذا اللمعان في القرية في تلك الساعة المتأخرة سمعوا عنه من حكايات الآباء والأجداد؛ إياك أن تقتربَ من شيءٍ يلمعُ ليلًا فهو لمعانٌ زائفٌ، وقد يكون خلفه روح شريرة تلبس من يذهب إليه! رغم كل الروايات المرعبة التي سمعتها زينات، اقتربت من الشيء اللامع بحذر؛ فوجدت جثةً ممددةً على الأرض! صرخت صرخةً مدويةً، لولا أنها بمدخل القرية والوقت متأخرٌ نسبيًّا، لسمع أهل القرية بها.

ثم اقتربت وجسَّتها، وجدتها ميتةً فبهر عينيْها هذا الثوب المطرز، وبدأت عملية التجريد.. تركتها بالملابسِ الداخليةِ فقط، ولاذت مسرعةً بالفرار.

أبلغ "عوض الجزار" العمدة فذهب العمدةُ بنفسهِ ومعه بعضٌ من الخفر، وجدوها شبه عاريةٍ فسأل عوض:

- عريانة! لما بلغت عنها كانت عريانة؟!

- لا، لابسة ومستورة، يا ترى إيه حصل؟!

- الحل الوحيد نلمَّها بملاءة سريرٍ نسترها ونبلغ المركز.

وهنا تدخل شيخ الخفر بالنصحية للعمدة، أخذ العمدة على أحد الجوانب:

يا جناب العمدة لديَّ اقتراحٌ ألا نبلغ المركز بالقتيلة!

- لماذا؟

- إنها مومس، ويبدو تخلص منها عشيقها وهرب، وتركها على الطريق ما بين القرية والبندر، وصعب أن يجدوا الجاني. جنابك يمكن يكون من خارج المديرية كلها وألقى بها هنا فتكثر الأقاويل، من أتى بها هنا؟ سمعة جنابك! ربما يقول الناس من قتلها من داخل القرية ويبدأ الخوف بين الناس.. ولا نريد أي شبهة لتلويث سمعة جنابك.

- ماذا تقترح؟

- نكفي على الخبر ماجور! ومن يسأل عن مومس؟ موتها أفضل من حياتها! نحن سنقوم بالواجب، إكرام الميت دفنه، تدفن حتى في مقابر جنابك.

- إنتَ اتجننت! أدفن عاهرة في مقابر علية البشوات والبهوات! جنب أبويا وأمي! أطلع بيها على الجبل واحفروا حفرة وارموها يمكن ياكلها ديب جعان.

- تمام جنابك، ولو وصل الموضوع للناس نقول المركز اتصرف وقبض على القاتل.

مضى الجميعُ ولما سأل عوض شيخ الخفر قال إليه:

المركز اتصرف بمعرفته..

في ليلةٍ من ليالي الأنس حكى "عوض" الحكاية لأصدقاء الجوزة، البعض صدقه والبعض قال حتى لو.. ما شأننا بها تحيا، تموت؟

صعد الدخانُ وانتهت قطعةُ الحشيش، مرَّ عوض على نفس المكان، تذكر وتأمل، رحل ولم يعد يمرُّ من هناك مهما زادت المسافة والمدة.....

صُنِعَ مِنَ الرِّيحِ

إنه الموسم يا لعينة! موسمُ الفرحةِ المجانية، أنا أكرهك... أحتقرك!! هكذا كان يُردد تلك العبارة في كل عامٍ وفي نفس هذا التوقيت.

صنعتِ الريحُ منه رجلًا يحتملُ الضيق، رجلًا يعرف وقت المنع ووقت المنح، صنعت فيه أشياء فيقبل منها تعسفَ الطبيعةِ حيث طيران أوراقِ الشجر فتتبعثر كومًا هنا وكومًا هناك.

يقبل صداقةَ الريح حينما يُلقي بالأوراقِ في جانبٍ واحدٍ.

يعشقُ الريحَ عندما تُحرك السحبَ فتختفي الشمسُ صيفًا، بينما يستعدي الريح ويكرهها، عندما تُعانده فتحرك السحب، فتهطل الأمطارُ على الأرض وتتسخ فيزداد عناء الإزالة.

تلف نفس الريح وتدور في الربيع، مع حلاوة النبات الأخضر المشدود على الأغصان، تنتفض الزهورُ وتُعلن عن نفسِها بالألوان، ولكن في ظل تلك المعاهدة مع الريح يكتشفُ أنها وقتيةٌ؛ تأتي رياحُ الخماسين وهي الشر الذي طالما نفر منه سواء حول أو خارج سور الحديقة التي عمل بها كناسًا، وهو يتلصصُ بالرؤيةِ على العُشاق حيث الأيادي التي تمتد في جميع المناطق، تشرحُ معانيَ يعجزُ اللسانُ عن قولها. كانوا يكشفون عن ابتساماتٍ ربيعيةٍ سعيدةٍ، ظلت أيامًا ممتعةً في أوقات العمل، ولكن فجأة تتحرك الريحُ وتتشابك السحب وتزدادُ سرعة العدْو.

فحضورُ الخماسين بكل غبائها يُنفر العشاق، فيهربون ويركضون وكان سؤاله ماذا يفعل؟

في صباح اليوم التالي، وبعد مرور أعوام احتمل فيها عناء الريح؛ قدّم استقالته ليترك الساحة لها مشفقا على من يأتي بعده راجيًا ألا يكون حظه مثله، تصنع الريح سعادته وتصنع أحزانه أيضًا..

تَاجِرُ الصَّحَرَاءِ

وقف تاجرُ الصحراءِ إلى جوارهِ جملُهُ يجترُّ، قد أنهكه طولُ الرحلة، كم كانت في تلك المرة صعبةً شاقةً! لكنه اعتادعلى ذلك؛ نظر التاجرُعلى امتداد بصره في أرضِ اليوم.. وفي كل مرةٍ يبتعد ولا يعرف إلى أين ستأخذه التجارةُ؟!

وضع على رقبةِ الجَمل صورةً مرسومةً، كتب أعلاها الصحراء، صوَّرتها امرأة ذات شَعرٍ طويلٍ أسود وأصفر، عينيْن كحيلتيْن، رقبة طويلة تنتهي بتفرعاتٍ ناحية الكتفيْنِ والصدر.

حمل فيما يحملُ بعضًا من أكياس الرمل من تربةِ كل جهةٍ من الجهات التي زارها، إلا أن الشمال تختلط فيه الرمالُ مع اللون الأبيض.

أنفه الأفطس أعطى مساحةً للهواء أن يتوغل في جسمه، يمتلئ بالأكسجين بكل أطرافه وشراييه.

وقتُ العواصف الرملية، لونه الأسود يصيرُ أكثر دكانةً.

عباءته البيضاء، تمنعُ نوم الشمس على جسده بالصباح، فيبدو للناظر إليه كُرةً سوداء ملفوفة في شالٍ أبيض، لا يظهر منه غير يد سمراء، تقود جملًا حتى يدنو من أرض اليوم.

علّم التاجرُ مُساعديه بعض أناشيد الصحراء:

قد تركنا الوادي الخصيبْ

تركنا كل حبيبٍ وقريبْ

أعطي من كنوزك كلَّ عجيبْ

أبغض كل أعدائك، أنا الحبيبْ

يحفظ التاجر مثل تلك الأناشيد، يكتبهاعلى صحافٍ من ورقِ النخيل، حتى تكونَ متداولةً بين الأجيال.

ينظرون للسماء بالمساء، يناجون النار المشتعلة، وسط حكاوي السَّمر، يتناقشون أي من الجهات مربحة بعد الشمال؟

يبدأ الإعلانُ بين المستأجرين وتداول أخبار ومميزات كل أرضٍ وكل وقت.

(2)

جاء المستأجرون كل مستأجرٍ حسب طلبه، فهناك المستأجرون الصباحيون وهناك المستأجرون المسائيون، الذين لا يجمع بينهم شيء سوى الأرض نفسِها.

الصباحيون، الشمس لديهم المحور الأساسي وساعات الظل هي ساعات الراحة.

وهناك عاملٌ آخر لا يقل عن الشمس أهميةً وهو النخلُ؛ تستظل به الجباهُ المغموسةُ في الشمس طيلة النهار، وحتى ينتصف النهار يكون هناك نشاطٌ وجهدٌ متواصلٌ، قبل الغروب بقليلٍ، يُعيدون كل شيء نُصِبَ بالأرض ويتم إخلاؤها للمسائيين.

اتفقوا على كل شيءٍ مع التاجر، وتم تحديدُ عدد ساعات العمل، اثنتي عشرة ساعة، من الساعة السادسة وحتى الخامسة مساءً.

يقسمون المهام بينهم، هم كما يعرفهم التاجر أهل كهوف وخيم، يزرعون البانجو وفي نفس المكان يأتي إليهم التجار من كل حدبٍ وصوبٍ ، يختبر التاجر النبات وأولَ عويل دخان خارج منه.

يستنشقه فيُجيز الصنف أو لا.

يركبون الجِمالَ من كهفٍ إلى كهفٍ، وكل أرضٍ يحطُّون بها تبدأ عمليات استصلاح واسعة، يُشارك في تلك العملية الجميع حتى رئيسهم "فجر" يشاركُ، ينزع عن نفسه رداء الرئاسة ويُنقب عن الماء أيضًا.

"فجر"... نبراسٌ يرجعون إليه في كل كبيرةٍ وصغيرةٍ، هو رجلٌ متزوجٌ ولديه أربعة أبناء، "صباح" ابنته الكبرى وهي اسمٌ على مُسمى؛ تُساعد الوالد في إدارة شئون الصباحيين.

وعند الخامسة يرجعون جميعًا إلى كهوفهم.

المسائيون أهل المحبة والغرام، وتبادل القبل والمشاعر والأحضان الدافئة، يتخفون في زي الليل، يقيسون خطوات الليل بدقةٍ شديدةٍ؛ تبدأ أوقاتُهم من الخامسة مساءً وحتى السادسة صباحًا. وجدوا ضالتهم المنشودة في تلك الأرض؛ كان لمعانُ النجوم وتشكيلاتها له اهتمامٌ خاص لديهم، بل إنهم ينظمون الشهرعلى الأساس القمري، وأهم أيام الشهر بالطبع تلك التي يكون فيها القمرُ بدرًا.

أسلحتهم فتاكةَ من أجسادٍ نسائيةٍ تأتي في سياراتٍ فارهةٍ، فتفتح طريقًا للأحضان، للمسائيين الولايةَ على هؤلاء والحماية.

ينصرف المسائيون الذين اتخذوا من النجوم مرشدًا لهم.

بعدما أنهى التاجركل شيء؛ استعد للسفر إلى أرضٍ جديدةٍ، يُسافر في الليل والنهار في جميع الأوقات، في العواصف الرملية، في الأمطار، يعرفُ كل شيء عن كل شيء، ويتعامل كمالك الأرض الوحيد.

لديه رجاله في كل مكانٍ بالصحراء، يُنفذون أوامره ويضعون مستأجري الأرض الجدد تحت الملاحظة.

تحرَّك مع جَمله واختار في تلك المرة الجنوب، لعلها تكون أكثر ربحًا مما سبقها من جهاتٍ.....

حِكَايَاتُ السَّائِرَةِ

كائنةً خلف الأشجار القابعةِ بداخلها، وجودُها سنتيمتراتٌ لا تتعدى مترًا واحدًا، وجودٌ معنوي أكثر منه وجودًا جسديًّا، وجودُ ذوات الأربع تقاتل للغذاء.

القطة بالأمس وضعت قططها الخمس الصغار، كانت ولادةً شبه متعثرةٍ بصوتٍ عالٍ دلَّ على الجوع والبرد، ذلك الصوتُ يُفصِح عن رُوحٍ حيةٍ أتت إلى الدنيا نختلفُ مع كونها ذات قيمةٍ أو لا، ولكن كُتب لها الوجود. أخذَتْ القطط وجلسَتْ إلى جوارها.

أما هي.. امرأةٌ ذات مهمةٍ واحدةٍ لها في الحياة؛ الاعتناء بأبناء صديقتها الوحيدة...القطة.

بعد أن اطمأنتْ لها تركتْ قططها وأخذت تسعى، تُحضر الطعام، بقايا أكل في أي خرابةٍ أو مقلب قمامةٍ، وبعضًا من الماء المتوافر بعد غسل الشوارع.

كانت المرأةُ في أثناء جلوسها تحسد الأشجار، وتمنت أن تُخلَقَ شجرةً، ولكن حتى تلك الشجرة لم يدُم وجودها وتم اقتلاعها، لأنهم أرادوا ذلك.

لم تملك ما تُدافع به عن نفسها إلا الجذور، التي تشبثت بالأرض بكلِّ ما تملكُ من قوةٍ، ولكن في النهاية فقدت المقاومة واقتُلِعَت.

ليالي تمرُّ على المرأة، والمارَّة يتذكرونها، ومع ذلك أحيانًا كثيرةً لا تراها عيونهم!

ظلت أكثر المشاهد التي تؤثر فيها، وداع قطة أو كلب أو موتهما، فكلما تعبت في تربية قطةٍ بالتحديد، فارقتها بعد فترةٍ من الزمن إلى الحياة والتزاوج والتناسل .

تمنت أن تستمر كلّ القطط حولها ولكن هيهات! فالرزق قليلَ، والمكان ضاق بهم، والمواءُ يزدادُ وقد ينقلبُ إلى حدِّ الصراخ.

الشتاءُ صديقٌ ثقيلُ الظل، ترافقه وهي تنتفض منه.. تُحاول أن تتوارى خلف الأقمشة المهلهلة، بينما الصيفُ لم يكن بهذا السوء إلا صباحًا، وخصوصًا يوليو وأغسطس.

اليوم... قرَّرت الرحيل إلى مكانٍ جديدٍ، لم تختبر رزقه بعد، وقبل نومها وقفت سيارة سوداء، خرج منها أربعة كائنات بصفةٍ بشريةٍ، ببِدَلٍ سوداء ونظارات سوداء، أجساد متضخمة ومفتولة العضلات.

في وقتٍ انعدمت فيه حركةُ المارة إلى جوار الكوبري الملاصق للأشجار الكائنة هي خلفها، تراهم بوضوحٍ رغم كل الضباب.

خرجت من السيارة سيدةٌ تصرخُ بقوةٍ، وضعوا أيديهم على فمها، وأوثقوا يديها، ألقوا بها من فوق الكوبري. لاحظ أحدهم أنَّ شخصًا ما يراقبهم خلف الأشجار؛ أقبل إليها وحاولت الركض ولكن لم تفلح.

حاصرها الرجال الأربعة، ألقوا بها من فوق الكوبري إلى جوار المرأة الأولى التي ما زالت تقاوم حتى الآن. أما هي فغطست إلى الأسفل، كانت الدوامة النيلية تجذبها بقوةٍ، صعدت إلى سطح الماء وضربت بقدميها، حاولت المرأة الأخرى التشبث بها، ولكن الموت صار محققًا لهما.

لمحهما مراكبي، لمح جسديْن يغطسان ويصعدانٍ على وجه الماء، اتجه إليهما بقاربه الصغير، المرأة الأولى قطعت النفس تمامًا بينما هي ما زالت حيةً.

تأمل المراكبي وجه المرأة الأولى؛ وجدها النجمة المشهورة صاحبة الرصيد الفني الكبير، أخرجهما من القارب، ثم توجه بالنجمة إلى الشاطئ، اصطفَّ بعضُ المارة حولها وعرفوها، أخذوها إلى أقرب مستشفى لإجراء الإسعافات اللازمة.

بينما هي لا تزال ترتجف.. ولا يسأل عنها أحدٌ.

فُتحت للنجمة أفضل غرف الإنعاش، لكنّ العمر واحدٌ والرب واحد.

تحفظت الشرطةُ على شاهدة العيان الوحيدة للواقعة، فشعريرة قاتلة لا تزال تسري في جسدها المنهك، ولم ترد بشيء، اقتادوها لإكمال المحضر، وما زالت بقايا ملابسها المهلهلة مبتلة.

كتبت الصحفُ خبر موت النجمة، ذُكر في تفاصيل الخبر: مجهولون ألقوا بالنجمة من فوق الكوبري مع امرأةٍ مجهولةٍ.. فماتت النجمةُ وعاشت المجهولة.

حَلوِيَّاتَ زَمَانٍ

في صباح أول يوم بعد تشييع جثمان الفقيد "عم رجب" السائق وشيخ السائقين بالموقف.. ككتلة واحدة وقف الميكروباصً كقطعٍ من الحديد والألمونيوم المصقول أمام فؤاد رجب.
"عم رجب" أربعون عامًا ذهابًا وإيابًا على الطريق.. لو كان الطريق رجلاً لذكره بكل الخير فكم كان يُراعي آداب الطريق.

كان من ضمن قلائل بالموقفِ يستمعون "لأم كلثوم" في الصباح وهي تشدو بالراديو: (يا صباح الخير يا اللي معانا) رددها معها حتى إنه حفظ المقطع الأول بالكامل، وبقية الأغنية يدندن باللحن ثم يغني القرار برفقتها.

حوَّل علبة حلوى قديمة بعد التغليف بالقطيفة إلى مجمع شرائط "أم كلثوم" و"عبد الوهاب" و"عبد الحليم" و"فريد الأطرش". كتب على العلبة "حلويات زمان" يسأله بعضُ الراكبين معه عن معنى كلمةِ حلويات زمان، فيرد ببهجةٍ:

غُنا زمان وطعم حلاوة كلماته!

وكما كان يُدلل أذنه بالسمع، دلل ميكروباصه أيضًا من الداخل والخارج. كاتبًا عباراتٍ، على حسب حالته المزاجية، فإذا قضى في ليلة خميس سعيدة يكتب:

"يا ناس يا شر كفاية قر" وإذا كانت ليلة غير موفقة أو ليست على مستوى ليالي سابقة يكتب كلمتين: "يا مسهل يا رب" ولا يغيرها إلا إذا عاد لمستواه الطبيعي.

بينما في حالة قلة الرزق يكتب: "يا كريم يا رب".. في حالة وفرة الرزق يكتب "الحمد لله".

حزن المَوقف كله على رحيل شيخه الذي كان شيخه بمعنى الكلمة؛ لا يرد من جاء بطلب، ويحل مشاكلهم، ولا يبخل على أسر من قضوا نحبهم في حوادث.

استلم فؤاد ولده اليوم كل شيء، وقام بعملية إحلال وتجديد في كل شيء؛ أول شيء فعله نزع آخر ما كتب الوالد: "استر يا ستار".

وبدأ في كتابة كلمات أغنيةٍ مشهورةٍ مؤلفةٍ خصيصًا للسائقين. ومن الداخل، أهدى علبة الحلويات لمن تولى المشيخة بعد الوالد، ونزع الكاسيت وأحل بدلاً منه C.D

في صباح أول رحلةٍ بالميكروباص، ركب إلى جواره أحد معارف والده من هو تقريبًا في مثل سنه، ترحم على "عم رجب" ونظر إلى مكان العلبة البلاستيك وسأل:

أين الحلويات؟

- ذهبت لصاحب النصيب يا عم الحاج.. موجود C.D .

سكت الرجل ولم يفتح فاه، لكنه تأفف طول الطريق، ونزل قبل أن يصل لمقصده المراد.

في صباح اليوم التالي كان ميكروباص "فؤاد" خاليًا، أشار قائلًا للرجل:

الميكروباص خالٍ.

- لا شكرًا، أنتظرُ التالي!

ومن يومها لم يركب مع "فؤاد" من جديدٍ.

المَنَاجِمُ الذَّهَبِيَّةُ

سوقُ اليوم، ذهب إليه وهو على يقينٍ أن يوم الخميس هو أجمل أيام الأسبوع، وأنَّ بعضًا من تلك الأمنيات المؤجلة تتحقق يوم الخميس.

يا له من يومٍ ينتهي النهاية الحسنة!

أما بقيةُ الأيام، فتختلفُ فيما بينها عن بعضِها البعض حسب السوق أو حسب اللمة الموجودة فيه.

هو ليس شخصًا بمفرده، بل هم جماعة. مجموعاتٌ ليست كثيرةً ولكنها ليست قليلةً.

أصدقاؤه المقربون إليه فيهم خمسة يُوزعون أنفسهم على الأسواق والتجمعات النسائية، التي أكثرها في أسواقِ الخضر والفاكهة.

البدايةُ كانت مجرد فكرةٍ في الرأس، لاقت استحسان البعض، وبدأوا في التجريب. تم تحديد الخطوات المتبعة في ذلك وكيف تتم دون أن تلاحظ أي سيدةٍ أو فتاةٍ.

وقف يُحدد لهم ويُلقي عليهم أول محاضرةٍ كما سمَّاها هو بذلك:

أول شيء، لا بد أن يعرفَ الجميعُ أن فكرة المواصلات العامة فكرةٌ غير مجديةٍ بالمرةِ لعددٍ من الأسباب؛ ضيق المكان وامرأة واحدة لا تكفي، تخيلوا هذا اللمس كله بالمجان، أن مجرد اللمس يتدفق هذا الحنان الأنثوي الذي نستجديه منهن، تخيلوا الاحتكاك!

رفع أحدهم يده بالسؤال:

إذا تعرضت لموقف أثناء المواصلات العامة لا يجوز اللمس؟

قال: يجوز ولكن الأفضل عند الجلوس إلى جوارها، وتُحاول أن تلصق فخذك بفخذها، وفي تلك الحالة علينا أن نختار في طريق خط سير المواصلات مدرسة بنات بالصباح، أو ما بعد الظهر أثناء خروجهن أو ما شابه ذلك، وكله يحتاج إلى بحث ودراسة عميقة قبل التنفيذ، وإذا حدثت مشاكل برِّر موقفك دائمًا بأنها هي التي دفعتك لذلك لسوء سلوكها وإشاراتها البذيئة.

بدأ أحدُهم يبتلع ريقَه الجاف ويتذكر ذكرى جلوسِه إلى جوار إحداهن:

بالأمس كنتُ جالسًا، دخلت فتاة الكل تمنى أن تجلس إلى جواره، ولكنها جلست إلى جوار من لا يقدر، والكل بدأ يلوم القدر، إنه الحظ العنيد التعس!

رجعت الكلمة إلى كبيرهم:

لا تيأسوا يا شباب، من لم يجلس اليوم سيجلس غدًا، الصبر ثم الصبر..

هنا يأتي السؤال، كيف تتم الإجراءات ودون ملاحظة أحدٍ؟ عدم شك أحد فيك.

تعلموا كلمات الاعتذار، إذا شعرت بكم إحداهن، انتبهوا أن تكون أياديكم غير متحركةٍ، ونركز على المنطقةِ الخلفيةِ، وهذا إمعانًا في إظهار عدم القصد.

الاختيار بقدرِ الإمكان ومع الخبرة، سوف تشعرون من تستحق ومن لا تستحق.

تنزلقُ أيديكم في سرعةٍ ومرونةٍ، خصوصًا كلما زادت نعومة ملابسهن.

أماكن تواجدنا..

أخرج إليهم خريطةً بأماكن التواجد والازدحام التي يكثرُ بها النساء، حتى إنه وضع مخابز العيش البلدي على الخريطة، وقال ليست محببة إليه لضيق حيز الهرب. ثم أكمل حديثه: كل عدة أيام سأحاول المجيء إليكم بمنجمٍ جديدٍ؛ الأماكن كثيرة، تحتاج فقط البحث.

(2)

اتفقت الأهداف والموتُ واحدُ، لحظة هبوط البجعة وفناء البحيرة وانحناء الطريق، تعظيمًا للإنسان وتقديرًا لدوره في صناعتها، وتمجيدًا في امرأةٍ تسير فوقها. وعلى قارعة الطريق، تلتهب دموع أطفالٍ على الوجوه العفنة الضحلة، وحتى الآن لم يزل ينزف طينًا وأوقاتًا أخرى دماء.

تكذبُ النظرة وتستقيمُ الموضوعاتُ الحسية، ترقص مع النور في الصباح، وتنفرد داخلها الشوارع المجاورة تزرع فيها أشجار الأثداء العطرة، ركز كل فكره في تلك البالونات الأمامية التي كانت تطيرُ وأخيرًا استقرت.

يراها طبول الحرب في أيام الهزيمة مدافع للهدم والقتل، كم من أقوياء ماتوا على أعتابها، تلك البالونات البيضاء والحمراء. اتفقا على النظر معًا دون موعدٍ مسبقٍ يجمعهما، هذا الاتفاق العام المثبت المتوغل في العقول، المثبت في الأنفاس المحروقة من علب السجائر، رفضا التراجع، رفضا العودة لمبادئ الأصول، كان اللهب المفعم بالشقاوة يدعوهما للتأمل، ثم رفعا درجة التوقع إلى أقصى درجة، وانقض النسر ثاقب النظر من أعلى السماء في انتظار دخول الهدف مرحلة التنفيذ.

استقرَّ الأتوبيس في أماكن عدة، والطالبان يطلبان خروج الثعبان من الشق، وما زالت هي تعف عن خروجه من البلوزة.

تحط الأماني داخلهما إلى أبعد مدى ممكن، وتعد الأسئلة بماذا لو؟ انتظرنا وامتنع الثعبان! البلوزة المقورة ناحية الصدر تحفظ هذا البياض من الانسكاب للخارج، وكلما يوشك على الخروج تمنعه.

نزلت دون أي شق، دون أي ثعبان، دون أي سمٍّ، تَوَخَّيَا الحذر جيدًا واستعدًّا للسمِّ ولكن مرَّ كل شيء.

الفرصة كانت تتلهفُ عليهما، ولكنها خانتهما عندما رفضت العزف على أوتار الأثداء، خانتهما عند المغادرة السريعة، وكلٌّ منهما اتخذ موقفًا. الأول صدَّق الفرصة وقال: في القريب العاجل.

بينما قال الآخر على مضضٍ وتشوق:

في القريب العاجل أنا مستعد.

تفارقا عن بعضهما وما زال الهدف واحدًا.

وفي صباح اليوم التالي، في طريق الأول إلى عمله وفي إطار تلك الحلقة من السعي اليومي، أثناء تواجده بنفس الأتوبيس، شعر أن شيئًا ناعمًا طريًّا وضخمًا بدأ بالالتصاق به من ظهره، استبعد على الفور احتمالية أن يكون هذا الشيء رجلًا، فلو كان رجلًا لن يكون طبيعيًّا.

لكنه لم يكن من ضمن هؤلاء المستغلين للزحمة في ظل سعيه وسعيهم، أو يفعل حتى ما يقوم به الآخرون، ولكن ما العمل وهي تقتربُ أكثر.. وأكثر حتى تكادَ تلتصق.

تشاور مع نفسه، هل تقصدُ أم أن اندفاع الركاب من حولها جعلها في هذا الوضع؟ وإن كانت تقصدُ هل هي مجرد نزوةٍ وبحثٍ عن لحظةٍ لم تجدها كثيرًا؟ هل متزوجة أم لا؟ في الحقيقةِ الكارثة أن تكون بالفعل متزوجة.

أراد أن يُدير وجهه نحو هذ المصدر الطري، ثم لم يشأ أن يُحرج هذا المصدر عن الاحتكاك.

جاءته فكرةٌ عنها، يبدو أنها بائعةُ هوى، ولكن استبعد تلك الفكرة، هل تخرج بالصباح أم أنها عائدةٌ من ليلةٍ مثيرةٍ؟ وتميل من كثرة التعب.

ما زالت هناك محطتان والشيء ملتصقٌ، تسلل إحساسُ الالتصاق إليه، وهو لم يسعَ إليه بل أتى، فلمَ لا يستكمل هذا الشعور.

كثيرون في الأتوبيس يتمنون أن يكونوا بدلًا منه، المحطة القادمة محطته، طرأ على باله أن يستمر حتى تنزل هي، ويكون اليوم إجازة، تستحق إجازة، إجازة يومٍ واحدٍ ربما تكون مرةً في العمر!

فجأةً ابتعد الجسمُ عنه في فورة كل تلك الخواطر، فقرَّر هو الاقتراب منه، اصطدم بها فتوقع أن تنهره، ولكن لم يحدث شيءٌ.

فقرَّر أن يرى هذا المصدر الطري، نفض كل الاحتمالات ونظر..

كانت شنطةً مغلفةً بإيشارب حريري الملمس، شنطة ضخمة وضعتها ما بين الظهر والمؤخرة بها كل مواصفات النعومة.

نزل واستكمل حلقة السعي اليومي الشهري السنوي.

مَقاعِدُ الزَفافِ

وضعوا المقاعد كما المعتاد، العريس على اليمين وعروسه على شماله.

في تجربة من واضعي المقاعد لاختبار هل وضعها بتلك الطريقة صحيح أم لا؛ وجدوها صحيحة.

جلس أحدُ العمال على مقعد العريس ذي العشرين ربيعًا للتجريب، الخيال لعب دوره في أداء التمثيلية وكأنَّ العروس إلى جواره، وكأنه يضحك وهي لا تستطيع أن تمسك نفسها من ضحكةٍ تريد أن تضحكها، بل تريد أن تصرخها بأعلى صوتٍ ممكنٍ، وهذا كله من فرط نكتةٍ عن ليلة الزفاف فقد صارا زوجين الآن، ويحق له إسماعها بعض تلك النكاتً فالحواجز تلاشت.

ضحك وضحكت حتى تلاشى الإيهام وعاد العامل.

جاء الدور على رئيس العمال، وهو الذي اقترح الفكرة من البداية، جلس على المقعد فتقمص دور الغضبان من عروسته، والسبب أنها تغارُ من هذه وهو يغار من هذا، ومنذ اللحظات الأولى يتبادلان الاتهامات والسؤال من هذه ومن هذا الذي اقترب منكِ بتلك الطريقة الفجة أثناء السلام؟!

أطال في التمثيلية، ولم يُرِد ختامها حزينًا، فتصالح معها وقبَّل هامتها فارتاح نفسيًّا.

هبط جميعُ العمال بعد الاستمتاع بأداء أصدقائهم العظيم.

جاء المساء ودخل البطلان الحقيقيان لتُؤدى نفس المسرحية لمدة ساعةٍ أو ساعتين أو ثلاث، ربما تطولِ على حسب المدة. وفي آخر المسرحية، قاما والتف حولهما المعازيم من كل جهة وتركوا المقاعد خالية لبطلٍ آخر وبطلةٍ ثانيةٍ.

مَوْسِمُ النَّوَافِذِ المُغْلَقَةِ

لا يجد تسليةً مناسبةً سوى انتظارِ أن تُفتح نافذةٌ ما من المُغلقة، ولكن هو الشتاء بما يحمل من معانٍ توصد النوافذ. الكل حاليًا موصودٌ بلا استثناء في نوبة الحراسة الليلة بالدشمة المجاورة لقسم الشرطةً. كل تلك البيوت حركت في "سلامة" المجند حالةً من الشوق لمعرفة ما يحدث خلفها، تشاطره الليالي والقمر بعض هذا الانتظار من الوجد والوحدة.

في الصباح ينزل "سلامة" ويتجه للنوم، وقبل النوم تداول أمامه أحاديث المجندين رفقائه عن ما وراء كل شباك، وهو الوافد الجديد بينهم، تركزت الحوارات عن ميزة كل نافذةٍ أمام كل دشمةٍ؛ نافذة يتابعون من خلالها بعض المباريات العالمية والدوري المحلي، ونافذةٌ تخرج منها سيدة، تبدو من ملامحها في أواخر الثلاثينيات أو أوائل الأربعينيات، بملابس منزلية شفافةٍ كاشفةٍ عن بعض أجزاء الصدر، تنشر الغسيل وأحيانًا تقف إلى جوار زوجها؛ يشرب هو سيجارته بينما هى تحتسي الشاي.

يتبادلون الأماكن من حينٍ لآخر، ولكن بين كل تلك النوافذ نافذةٌ قريبةٌ من الدشمة الوسطى التي يدورُ الصراع حولها باستمرارٍ، عن صراعات تبديل الخدمة حتى إنَّ الجاويش لاحظ فقال:

إنها أوامر عسكرية نفذ يا جندي.

فيقف المجند مشدودَ القامةِ ويده جوار رأسه بتحيةٍ عسكريةٍ:

تمام يا فندم .

يقف كل عسكري منهم واضعًا عينيه في المنتصف، يضيق الحدقة من أجل نظرٍ أدق، ناظرًا إليها وهي تتجمل أمام المرآة، وشعرها يتطاير عندما يمسه الهواء، تضع الطلاء على أظفارها ولا تخشى البرد، تبدو يدها لهم عودًا أبيض من الذرة الرفيعة يدفع نحو الأكل، وعندما ترفع قدميها على حافة السرير لترتدي حذاءها، تتهافت الأعين سريعًا لمحاولة رؤية أكبر قدرٍ ممكن من قدمها، كل جزءٍ من كعب القدم إلى الركبة وهنا الصراع والسؤال الدائم، هل سنرى ما بعد الركبة؟

أول من بدأت تشير إليه بأصابعها كان "سيد القناوي"، وأول من استجاب لها "سعيد" من الغربية، ظلت غمزتها تدعو "سعيد" نحو مزيدٍ من اللهفة حتى تشاجر مع زميله وكاد أن يُقدم لمحاكمة عسكرية؛ عندما جاء دور "سيد" وأراد "سعيد" أن يكون مكانه.

تقف تتلوى بجسدها وتُداعب خديها، وتتموج وتتلون بالملابس، أول ما جاء "سلامة" لم يشأ أحدهم أن يخبره عنها.

وقف "سلامة" في أول أيامه، وظهرت وبدأت الإشاراتُ وهو لا يستجيب، ظنًّا أنها ليست إليه ثم تشير بإصبعها الذي يقول إليك أنت.

هو لم يُصدق وبعد انتهاء الوردية، أراد أن يُخبر أحدَ رفاقه، ولكنه قال سأحتفظ بالسرِّ لنفسي!

يضع سلاحَه على كتفه والخوذة على رأسه، والشوق بقلبه. نظر إلى أسفل وإلى يمينه ويساره، فلم يجد هناك أحدًا من رفقائه أو قادته يراه.

خرجت، فبدأ هو بالإشارة في تلك المرة، وهي تستجيب بالإشارة.

مرَّ شهرٌ كاملٌ وهو على هذا الحال، وهي تبتسم فتتبعها إشارة.

جاء موعدُ إجازته وبين أن ينفذ الإجازة أو يبقى، أشار إليها في صبيحة يوم المغادرة بالإشارات، أشار رافعًا يده علامة السفر، ثم أشار بثلاثة أي سيغيب ثلاثة أيام ويرجع.

مرَّت ثمانٍ وأربعون ساعة، بين أحاديث القرية وأصدقائه وأهله وكل أفكاره مع النافذة وصاحبتها، وقبل انتهاء الإجازة رحل، وصل للقسم؛ سأله رؤساؤه عن سبب هذا الحماس للعودة إلى الوردية فقال:

خدمة الوطن يا فندم!

أثنوا على جملته، استلم عمله وأثناء صعوده السلم للوصول لقمةِ الدشمةِ، كادت قدماه أن تطيرا بدل الصعود البطيء.

نظر إلى النافذة وجدها مغلقةً، قالٍ ستعود وتفرح عندما ترى أني أتيت قبل ميعاد الإجازة لأجلها، انتظر.. مرَّت ساعات نوبة الحراسة ثقيلة كئيبة؛ أول مرةٍ يشعر بها بكل هذا السوء! انتهت النوبة ولم تخرج ولم تفتح النافذة نفسها، قال ربما في إجازة، مرت ثلاثة أيام والنافذة على هذا الحال مغلقة.

من يسأل وكيف يعرف أين ذهبت، وفي أثناء كل الخواطر التي تجول بعقله، فتحت النافذة ولكن ظهرت يد رجل، ثم ظهر رجلٌ بشاربٍ واقفٍ، وبعد فترةٍ وجدها تقف إلى جواره تُداعب شَعره.

وقف مذهولًا بهذا المشهد حتى مرَّت ساعات نوبة الحراسة، نزل السلم وسلَّم سلاحه واتجه إلى سريره

وما زال الذهول يملأه!

دخل الجاويش ينادي كل المجندين للتعرف على من أصبح مأمور القسم الجديد، وقفوا كلهم صفًّا واحدًا أمام الذي كان بدورةٍ تدريبيةٍ خارج البلاد استمرت شهرين. ظهر المأمور بملامح صارمةٍ جافةٍ، وبدأ يلقي تعليماته ويشددٍ على المستجدين ممن لا يعرفونه من العساكر. "سلامة" يسمع ثم يتذكر ملامح الرجل الذي كان واقفًا بالنافذة إلى جوار المرأة هو أو لا! لم يتأكد بعد.

في النوبة التالية فُتحت النافذة؛ وجده هو بعينه واقفًا بشموخه وبشاربه الذي يحط عليه النسر وجسده الذي ينتشي كل جزءٍ فيه.

رَقْصَةُ رَنِّ الْخُلْخَالِ

وضعوا زجاجات البيرة كأهدافٍ لمرمى نيشانهم، الفائز منهم الذي يُصيب أكبر عددٍ منها في أسرع وقتٍ ممكنٍ.

في المرات الماضية كان كبيرهم هو الغالب الدائم، نسر إنساني ثاقب العينين.

يزنون ذراعه المفتولة بالرطل، ضربة قبضة يده بالكيلو جرام، إذا استخدم رأسه يكون بمثابة جاكوش حديدي، يقع على رأس الآخر، فيصيبه بالارتجاج أو بعاهةٍ مستديمةٍ.

نصَّبوه على حارتهم رئيسًا..

سيد أبو زيد ليس هو اسم الوالد بل من أبو زيد الهلالي، فالوالد اسمه خليفة ويُقال إليه يا عم خليفة أو يا أبو سيد، ولكن بعد نضوج سيد وبلوغه سن الرشد، ظهرت بركات سيد وفتوته على الحارة، فلم يعد ينده أبي سيد غير بأبي البطل.

في الليل يُعلق سيد شارات سوداء رسم عليها جمجمة بيضاء، موضوعة على باب منزله المُصفح بالحديد.

تنبح كلاب ربطها أمام الباب طوال الليل، استقرَّ نبحها في آذان أهل الحارة، فتحوَّل لنشيد ليلي يحفظه الناس فيعلن عن بداية الليل.

مرر حلوقهم زرع فيهم عبارة:

(أنا ملك الليل والنهار)

ملك يعرف كل الأشياء، ما خلف النوافذ وما يدور في غرف النوم، وعلى الأسِرة الممدودة وتحتها، ما يختفي خلف الحيطان فقد اعتبر نفسه الآذان التي يُقال عنها للحيطان.

يستخدم فرسًا يخرج به صباحًا في جولةِ تفقد أمور الرعية، بالليل تسمع سنابك الفرس وهي تسير تُجلجل في الآذان، تنفذ للقلوب.

القيمة التي تفلت من أيدينا تفلت إجبارًا أو اختيارًا، تفلت دون مراعاةٍ لشعورٍ أو حتى دون سماحٍ لحالةٍ واحدةٍ تسيطر، الكل مختلط.

طار وارتفع إلى ما أبعد ما تطلع هو لنفسه عن نفسه، لم يكن يعلم الحكمة التي تقول: (ما طار طير وارتفع إلا وكما طار وقع).

اجتمعت في يده كل سلطات الشارع والحارات المجاورة، جميع رؤساء الحارات أدوا له فروض الولاء والطاعة، كان بمثابة النسر وحوله مجموعة نسور آخرين، لا يقلون ضراوةً عنه بأي حالٍ من الأحوال، لكن تبقى الغلبة في يده، أصدقاؤه أفسدوا مثله.

تقرَّر رفعُ المعاناة عن أطراف الصراع، سكان الشارع والحارات من ناحيةٍ ومن الناحية الأخرى رجال الشرطة التي تعاني، لم تنفع معه شدة ولا لين، لذلك تقرَّر الزَّج به في السجن في إحدى القضايا، أو دون وجود قضيةٍ حاليةٍ مثبتةٍ ضده، فما قام وما سيقوم به في المستقبل يشفع لهم في الزَّج به في السجن لشهور، أو ربما لسنواتٍ.

كانت ليلة القبض عليه عصيبةً جدًّا، أطلق نيرانه من مدفعه الرشاش، كل وحوشه كانت تُقاوم إلى انتهاء آخر طلقةٍ بحوذتهم، وعندما اشتد الحصار عليهم، قرَّر الاستسلام خرج والمنديل الأبيض على عصا صغيرة، تقدم هو الصف والباقون من خلفه، أيديهم فوق رؤوسهم.

في قاعة المحكمة نظرت الزوجة للقضبان الحديدية، وهذا الصدأ الذي يأكلها وينزف ببعض القشور.

أما هو تلمس الحديد مخرجًا أصابعه، فتحركت الأنامل بحريةٍ باليمين واليسار.

وحديث مقتضب جدًّا وأوصى الزوجة قائلًا:

بالمرات السابقة كانت البت صغيرة ولا تُدرك معنى الحبس، لكنها الآن كبرت، أصبحت تُدرك معاني الأشياء، لا تحضريها في أي زيارةٍ معك، عليها وأن تُربى وتعرف بأن أباها رجلٌ وسيظل رجلًا إلى النهاية.

الزوجة التي كانت تشفق على الجاني قالت عبارات سمع وطاعة أخيرة: رجل طبعًا.. اتركها مع أختك بالبيت ونتبادل الزيارة مرة أنا ومرة هي تراك.

شدد على أطراف يديْها التي بالكاد يلمسها من خلف الأسلاك والقضبان وقال:

البت هتوحشني، البت في عينك لبى لها جميع ما تطلب.

- لا تقلق أبدًا.

حكمت المحكمة بالمدة التي تريح أطراف الصراع لفترةٍ معقولةٍ، لعل وعسى يتغير، لا يوجد شيء مُستبعد.

أول زيارة حضرت بسيارة أجرة بصحبة البنت، في ظل غياب الأخت لعدم رغبتها بالزيارة، خرجت منذ الصباح الباكر، ولم تعلم الزوجة أين رحلت؟ ومتى ستعود؟

حيث إن الأخت أحد أطراف الصراع الصامتة فاضطرت الأم إحضار الابنة فلمن تتركها بعد أن قاطعها الأهل والأقارب والجيران.

ظلت الزوجة ليلةً كاملةً، تتطهو أشهى المأكولات التي يحبها الزوج السجين.

تركت البنت مع السائق وأوصته أن يلبي طلباتها مهما طلبت، كان ذلك قريبًا من البوابة الأولى، حيث

اصطف العساكر وبعض السيارات التي تنتظر من دخلوا للزيارة، بعض المنتظرين أشعلوا السجائر، هناك من أخرج طعامًا، هناك من تكلم مع بعض العساكر، ظلت البنت قابعةً في السيارة تنتظر.

سألها السائق:

ما اسمك لقد نسيته؟

- رن الخلخال.

- كم عمرك؟

- ثمانية.

- لماذا أبوكي أطلق هذا الاسم عليكي (رن الخلخال)؟

- اسم ستي أم أبويا كانت ترقص وجدي قتلها ودخل السجن ومات فيه.. أبويا قال إنه من كتر حبه في أمه أطلق عليّ الاسم.

- آه.. فهمت طيب أحضر شويئًا إليكي ماء أو حلاوة أو بسكوت؟

- لأ، أشكرك أنا شبعانة.

بعد فترة سكوت أدار السائق الراديوعلى إحدى المحطات الإذاعية الغنائية، لعل ذلك يكسر حاجز الانتظار والملل، إذ بالأغنية المشهورة تلك، يأخذ يد الفتاة ويُخرجها من السيارة بعد أن ظلت مكتوفة اليدين، واضعًا يده في يدها وقال:

هيا اخرجي قليلًا الجو جميل!

وإذ بالبنت تخرج، لتقف على جانب الطريق، تدندن بكلمات الأغنية، ليمتد الغناء إلى تحريك الوسط إلى الرقص بكامل طاقتها الإبداعية، السائق وأصحاب السيارات الأخرى والعساكر اندهشوا!

لتبدأ مرحلة التصفيق بل ويخرج أحد الضباط من سيارة شرطة قابعة أمام البوابة، ويلتفوا جميعهم حولها مع الأغنية الراقصة المذاعة، ضحكاتهم تملأ الوجوه العابسة، التي قاست الملل.

ومع قرب انتهاء الأغنية بدأت الأفواج التي أنهت الزيارة بالخروج.

خرجت الأم لتندهش من المنظر، تتجه نحو البنت مباشرةً لتعنفها وتضربها ثم تعنف السائق وتوجه اللوم له، تصرخ بصوتها في كل من كان يُصفق بمن فيهم الضابط:

أين الرحمة في قلوبكم؟ إنها غير موجودة بالمرة، طفلة؟ تستغلون طفلةً؟

هل تظنون أنها وحيدةً بالدنيا، أبوها محبوس، لكن لها من يُدافع عنها ربنا موجود.

حاول السائق الدفاعَ عن نفسه لم تعط له الفرصة، لينطق حرفًا واحدًا..

أعطته حسابه ورحل، راحت تبحث عن غيره..

ما زالت رن الخلخال تبكي..

تُحاول أمها إسكاتها بكل الطرق مرةً بالضرب ومرةً بالإقناع:

أبوكي محبوس خلف تلك القضبان، تشير بيدها نحو النوافذ الحديدية لتكمل حديثها:

من فين يجي الفرح، وهو ما زال خلفها، وعْد سنرقص جميعًا عند خروجه، ولكن الآن لا.. لا يجوز...

الشَّايُ البَارِدُ

هبط الليلُ بسوادِه، ولسانُ حالهم استر يا ساتر! عفَّر الهم وجوههم وعفَّرهم بكل الحقد والشر في السابق.

اجتمعوا في المقهى بعد سرقة الأمس، وبعد اقتسام المبالغ التي حصلوا عليها تفرَّق كل واحدٍ إلى بيته، كانوا سبعة من الرجال.

الأول والثاني والثالث أخوة، بينما الرابع والخامس هما السبب في هذا الجمع، السادس هو أكبرهم سنًّا وهو العقل المدبر وصاحب سجل إجرامي مُشرف بين أصحاب السوابق، أما السابع فهو آخر من انضم إليهم، عمله كان بالمواصلات العامة وخصوصًا تخصص أتوبيسات عامة، مرَّت سنواتٌ من عمره بالسجن على أشياء لا ترتقي لأن يقضيها مسجونًا بسببها، فقرر أن ينضم لتلك الشلة، التي عندما تضرب؛ تضرب ضربة المعلم الذي درس وخطط وبحث واستقصى المعلومات؛ ملَّ من العمل الفردي.

حضر السابع في الليلة الرابعة، وصل إلى المقهى قبل الجميع كما ظن، وبعد انتظار فترةٍ وجيزةٍ بدأ

يتلفت حوله، فلم يجد الوجوه المألوفة لأول مرة.

طلب واحد شاي، قبل البدء في شربه، دخل شخصٌ جديدٌ المقهى، كان بشاربٍ ويضع عصا تحت إبطه، جلس على أقرب كرسي في مقدمة المقهى.

سأل عنه النادل:

هل تعرفه؟

- لا لم أرَه من قبل.

انتفض من مقعده، فقال النادل: وحساب الشاي الذي لم تشربه؟

- سأعود!

اتجه نحو سور الأشجار المقابل للمقهى، وترقب رحيل الرجل، مرَّت نصف ساعة ورحل. عاد من جديدٍ، سأل النادل:

ماذا طلب منك؟

- طلب شايًا شربه وذهب.

- طيب! واحد شاي.

- أطلب لك شيشة حتى يحضر الأصدقاء؟

- لا، أنا منتظر التعميرة الحلوة.

ظلت المخاوف تتردد في صدره وتلكزُه حول مصير أصدقائه، فقد مرَّت ساعتان ولم يظهر أحدٌ، واليوم موعد الاتفاق على عملية جديدة. ما زاد تعجبه أكثر! أنه الوحيد في المقهى بين كِل الزبائن الآخرين، لم يتحركوا من مكانهم. ذهب هو ناحية سور الأشجار مرتين بينما لم تهتز لهم شَعرة واحدةٌ، حتى عدد الحاضرين لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، مع أن هذا المقهى وفي تلك الساعة بالتحديد كان يمتلئ عن آخره!

وعلى الجانب الآخر..

قال أحدُ الموجودين لصاحبه:

لا يكفي واحد.. نحن نريد مجموعةً كاملةً.

- ألا يكفيك مجموعة الأمس؟ ستة أفراد. وإذا انتظرنا بعد ذلك ربما يرحل ولا يعود!

كانت الخواطر لا تزال تتردد في عقله، تلفت يمينًا ويسارًا ثم قرَّر أن يرحل حتى قبل أن يشرب الشاي. وعندما قام، ألقوا إشارة فيما بينهم واجتمع عليه الخمسة.

طلب النادل حساب الشاي، فرد أحدهم: حسابه عندي.

- لا تأخذ منه شيئًا فأنا لم أشربه، لقد برد.

صاح النادل:

لكنك طلبته، سواءً شربته أم لم تشربه!

"أتحاسب على الشاي البارد!" قالها وهو ينظر إلى النادل بعين المستسلم.

المَوْتُ الْقِرْمِزِيُّ

ليس المهم لماذا يموت؟ أو ما ذنبه؟ الأهم إذا عاش كيف يعيش؟

أنهى بتلك العبارةِ جدلًا دار مع زوجته.

هي في صمتٍ رهيبٍ، والحديثُ طال وصار الإقناع أصعب؛

ردَّت بحنقٍ:

هل ترى أن ابنتي الرضيعة تستحق الموت؟! وهي لا تملك من أمرها شيئًا؟

- مَن منا يستحق الموت؟ لولا الظروف!

- لديَّ اقتراحٌ بالانتظار ونبدأ من جديدٍ، هل تسمح لنا بالانتظار؟

- الانتظار أسوأ كلمة؛ إنها الكلمةُ الوحيدةُ التي تقتلنا دون دماء، إنها أداةُ الذبح بلا نصلٍ.. لا يسعنا الانتظار أكثر من ذلك، لا بد أن نرتب أنفسنا الآن ونهيئ ذواتنا لتقبل الحدث، وكل شيء سينتهي في غمضة عين.

- تسمح لي باقتراح آخر؛ نترك الرضيعة عند أحد أقاربنا يربيها، ويكفي أنا وأنت والابن الأكبر، حتى الابن الأكبر ذو السنَّوات الخمس لم ترحمه!

- الجميع.... لستُ أنا هذا الأب القاسي، ولكن على العكس هذا لمصلحتهم.

- لا تنسَ أن قبولي بالفكرة كان قائمًا على الأمومة، واختياري ليس سهلا بالمرة.

- الحساب سيكون معنا نحن، هم دون سن المحاسبة. لا تقلقي؛ جميع الغضب سينصبُّ علينا! لقد تناقشنا بما يكفي وتم حسم الأمر, أليس كذلك؟!

صمتَ وتأملَ الزوجة، وذكريات تمرُّ في المخيلة، هروب من هذا وذاك؛ شياطين في صورٍ بشريةٍ، قسوة.. ألم.. عنف، اجتمعت في ثوبٍ ألوانه داكنة.

رجع الزوج يُكرر السؤال:

أليس كذلك؟!

عادت بعد رحلةٍ من الخيالات وبعد شهقةِ موت:

وهو كذلك!

دار الزوجُ حول الزوجة مراتٍ ومراتٍ والمقعد في منتصف الغرفة وكأنه استجوابٌ بوليسي رسمي:

أين هؤلاء الذين تأمنين مكرهم وشرهم لتربية أطفالنا بعدنا؟ دعيهم ملائكة لا تلوثهم الأفكار!

- لديَّ سؤالٌ واحدٌ فقط.

- تفضلي، و لكن دون إطالةٍ فقد أزف الوقت.

- ماذا لو عُدنا نفكر بتمعنٍ ورشدٍ؟

- كيف يكون ذلك في ظنك، ألا تكفي كل تلك السنوات من التفكير؟

- ماذا لو فكرنا بالمواجهة؟ محاولة أخيرة.

- كم مرةً واجهنا، وكم مرةً فشلنا، وكم مرةً اتخذنا القرار وعدنا فيه! الصواب كل الصواب؛ أن نكون مستعدين للموت دون خوفٍ أو قلقٍ على شيء نتركه خلفنا. وبضميرٍ مستريح، فلا يوجد أبناء يتحسرون. تشجعي ولنُعد العشاء، ولَنكن مبتسمين أمام أبنائنا، ولتتذكري أن منظَرنا هو آخر منظر يرونه في حياتهم القصيرة، التي كمشاعر أب كنت أتمناها أطول، ولكن هيا.. أحضري العشاء!

التفوا حول المائدة، والنظرات تُراقب الشوربة وما حولها، كانت هي فقط مع السمّ، وحبوب لسان العصفور الصغيرة على شكل حروفٍ وأرقامٍ مُحبَّبة!

لا تحتمل رؤيتهم يموتون أمامها، قررت أن تشرب أول مِلعَقةٍ في آنٍ واحدٍ مع الرضيعة، على أن يُعطي الأب الملعقة للابن. تذمر وأصرَّ أن يتناولها بمفرده، أمام الحروف العائمة في الطبق والغاطسة في القاع بتُؤَدَةٍ، تمهل لينتقي الأشكال الصغيرة بنفسه، كان هناك الكثير من حرف " M " و" B " و" " R وكل الحروف الأخرى.

بينما الأب يتجرع آخر ملعقة، وبعدما لاحظ وفاة الزوجة والابن، لم يكمل التأكد من موت الرضعية، تجرَّع الشوربة وتمدد جسده على الأرضية في انحناءةٍ مفاجئةٍ..

وبعد فترةٍ صرخت الرضيعة بصوتٍ عالٍ فهي لم تمت؛ غافلت الأم الأب ووضعت لها محلولًا مخدرًا.....

دَقائِقَ إِضَافِيَّة

أشرقتْ الشمسُ وملأت السوق وبعد شروقها بقليلٍ أقبل الباعة، وكلٌّ منهم يستعد برش الماء وتلميع بضائعهم وهش الذباب عنها، الذي كلما هشوه عاد من جديدٍ.

كانت كلماتُ الدعاء الصباحية تنطلق من أفواههم تُعلن التسليم والانتظار.

أقبل طفلٌ مع أمه يتبضَّعان، وكل عينيه مع بائع البطاطا المعسّلة الواقف بأول السوق، لاحظت الأم نظرات الطفل المتعلق فقالت كلمتين:

عند العودة!

أمامها قائمةٌ طويلةٌ من المشتريات تبدأ بالخضراوات والفاكهة وتنتهي باللحم الأحمر.

عند كل توغلٍ في أعماق السوق، لافتة أخرى بسعرٍ أقلٍ بربع وبنصف جنيه عما قبله. السعرُ يُغري نحو مزيدٍ من التعمق في انعطافات جسد السوق المتعرج. تُحذر نفسها من التسرع بالشراء قبل السؤال.

وعند محل الأسماك وقفا، قفزت سمكة تطرطش بالماء على وجه الطفل الصغير ليبكي ولا يهدأ إلا عندما اختارت الأم نفس السمكة للشراء.

لتكرر الأم الوعد:

البطاطا المعسلة حاضر.

وقفت أمام التفاح الأحمر والأخضر، قرأت السعر، فحادت عنه تمامًا. واختارت فرشة مجاورة فاشترت عنب بناتي مسكر. بعد شراء الطماطم والبطاطس يتبقى اللحم، لصناعة صينية البطاطس بالفرن.

ولم يتبقَ مع الأم سوى ثمن كيلو اللحم، لم يكن الاختيار صعبًا بين اللحم والبطاطا؛ فاختارت اللحم.

في طريق العودة وبعد كسر الوعد، قالت:

حبيبي الأسبوع القادم، أعدك بذلك!

سدَّد الطفل نظراتٍ تحسد الواقفين إلى جوار العربة، وتلك الرائحة النفاذة التي تستقر في قلبه وتذكره بها، حيث شواؤها الطيب ذو النسيم الذي يبقى بالأنف لدقائق إضافية بعد الرحيل!

شدَّت الأم الطفل من ذراعيه فتمسك بآخر أملٍ، ولكنه لم يفلح. ومضى يؤخر قدمًا ويُقدم أخرى.. قال لأمه:

وعد؟

- وعد.

قالت الأم كلمة شرف.

توقف عن الالتفات للخلف، سار معها والرائحة لا تزال تزكم أنفه.

المَرْأة التِي شرِبَتْ مِنَ البَحْرِ مَرَّتَيْنِ

اشربْ من البحر!

قال لي هذا، أراد أن يغظيني..

قالها للجدة التي كانت تنظر من النافذة تتطلع إلى الشمس وبعض الغيوم التي تحجبها اليوم.

بعد جمل الحفيد صمت كل ما حولهما، سكون لم يحدث منذ فترةٍ،

ثم فجأةً تكلمت الجدة:

أريد أن أذهب للبحر، ثم أكملت: أشعرُ أن أجلي قد اقترب، تدورُ من حولي منذ الصباح بعضُ الذكريات عن موتى رحلوا، وعوالم من بشرٍ تحولت إلى ترابٍ، ترقد تحت الأشجار وتشرب من ترابها.

لم ينتبه الحفيد لكلام الجدة، إلا مع المرة الثالثة، فقد بدا له بعض الهذيان الصباحي المعتاد..

ليجدَ الشاب كميةً من الإصرار دفعه لتلبية الطلب لعلها تحتضر، رغم أنها غالبًا في كل صباح، تنبئ نفسها بالموت، تنتظر وتنتظر ثم لا يأتي، لكن ربما في تلك المرة تصدق النبوءة.

حملها من على السرير ثم وضعها على الكرسي المتحرك الذي حفظ أجزاءها منذ فترةٍ من الزمن، حتى أصبح لصيق الصلةِ بها، جلده اعتاد على حمل مؤخرتها الضعيفة.

وعند دولاب الملابس تجوَّل بصرُها الضعيف عن فساتين رقصت بها، وأخرى حملت لمساتِ بعض العشاق قبل الزواج، وفساتين احتفظت بها لأوقات القمر الحميمية، وأخرى سقتها الشمس بالعَرقِ المتساقط على الجبين، حتى وجدت مُرادها في فستانٍ تتحدر منه الورود، تكاد تصبُّ على أرضية الغرفة، استعدت بوضعِ شالٍ على كتفيها.

سار الحفيد بها من البيت للبحر، فلم تكن المسافةُ بعيدةً.

كان جسدُها الفوقي ما زال يتحرك وينتفضُ من الفرح، يهتز وتدندن ببعض أغاني البحر القديمة لم يسمع بها الشاب من قبل، وصلا البحر وجلس إلى جوارها على الرمل، بفستانها الكلاسيكي الذي أحيا فيها ذكرياتٍ سرقها البحر، سمعها الحفيدُ تهمسُ للهواء وتهمس مرةً أخرى في إشارةٍ منها للبحر.

أخرجت من كيسٍ بلاستيكي موضوعٍ على مقابض الكرسي المتحرك كوبًا

سألته أن يملأ الكوب من البحر، تعجَّب من الطلب!

لكنه لم يمتنع عن تنفيذ الطلب فملأ الكوب، ثم طلبته وأن يشرب.

عندئذَ انفجر الحفيد مراجعًا صفًّا من الطلبات الغريبة طوال اليوم:

لا يمكن يا جدة، الماء مالح ويجرح الحلق!

فقالت:

الآن فهمتُ معنى عبارة: (اشرب من البحر!).

استكملت حديثها:

أعرف أن معك زجاجةً من الفودكا في جيب بنطالك الشمال، صبَّ لي منها على ماء البحر.

ظلت محاولاته إقناع الجدة إنه لم يعد يشرب، لكن دون جدوى حتى مدت هي يدها نحو جيب بنطاله الشمال، وعندما لم تنالها لصعوبة وصول يدها، رضخ للطلب وأخرجها.

هيا صُبَّ لي على ماء البحر.

فشربت..

هل تعلم؟ هذه أول مرةٍ أشربُ فيها الخمرَ، الخمرُ جيدٌ رغم أن الملح غلب على طعمه لكنه جيد.

ـ بالتأكيد سيغلب الملح على طعمه..

لم تسمع هي الجملة الأخيرة وأكلمت وكأنه غير موجودٍ أمامها..

مضت سنواتٌ أخشى من كأسٍ واحدٍ، أخشى على جوفي من حرارةٍ طالما سمعت عنها للخمر ودوران يُصيب الرأس، أريد كوبًا آخر بماء البحر..

نفَّذ الحفيدُ الطلبَ وهو يتساءل جدةٍ يظن أنها تحتضرُ وتشرب فودكا.

شربتْ للمرة الثانية..

ثم عاودتِ الدندنة للبحر، والغناء بصوتٍ عالٍ، وسألتْ:

متى نعرفُ نهاية البحر؟!

ـ وهل للبحر نهايةٌ؟

ـ نعم.. ينتهي مع نهاية العالم.

ـ إجابة منطقية يا جدة.

ـ صحيح منطقية يا ولدي، ولكنها اقتربت من التنفيذ.. نهاية كل شيءٍ قد اقتربت.

كل هذا الملح وكل هذا الخمر، مشيرةً للكوب.

الحياة بها شيء صالح، لا أعرف ما هو لكنها مثل هذا الكوب المخلوط بماء البحر مع الخمر.

قالتها ثم غلبها النعاسُ، سحب الحفيدُ الكرسي ثم عاود أدراجَه للمنزل

حملها ووضعها على السريرِ، مرَّ يومٌ بالكاملِ ولم تستيقظ.

اقترب منها..

وجدها ساكنةً لا تتحرك، وواضعةً إحدى الزجاجات على فمها...

وَقْتٌ جَيِّدٌ لِلتَّحْلِيقِ

في هذا اليوم الاستثنائي... جلس أمام البحر ممسكًا بالجريدة اليومية. بدأت عيناه تتجولان سريعًا مقدمة العناوين: (حرق الشاب التونسي نفسه، هي شرارة ثورة الياسمين.. الرئيس التونسي يقول: (أنا الآن فهمتكم). وعلى الأخبار المحلية مرَّت عيناه أسرع: (دعوات لمظاهرات في عيد الشرطة احتجاجًاعلى بعض ممارسات الشرطة.. ولتحسين الأوضاع المعيشية).

ترك جريدة الصباح واستأنف ما جاء إليه بالأساس... الصيد.

وضع "نورس" ثلاجة الصيد إلى جواره ممهدًا كل شيء لبَدْء الصيد، ثم شرع فيه. صيادٌ ماهرٌ تربَّى بالقرب من البحر، حتى إنَّ يوم ولادته؛ كانت النَوَّة تضرب الإسكندرية، وخلت الشوارع تقريبًا من المارَّة، فوجد الأب الأستاذ "عبد البر" والأم "سعيدة" أنَّ الشوارع صارت تشبه بحيرة مائية طينية. ومع طلق الولادة والحالة تسوء، حاصرهما الماء، فلم تستطِع الأم الصعودَ للمنزل من جديدٍ أو الذهاب إلى مستشفى أو عيادة. ولم يبقَ أمامهما سوى مركبٍ صغيرٍ مُغطى بالجلد، فتم استدعاء الطبيب، وأحضر الأب الماء الساخن من زوجة الصياد صاحبِ المركبِ، متخطيًا ذاك البحر الموازي للبحر الأصلي.

تم كل شيء على ظهرِ المركب، وصرخات الطفل الذي اتضح أنه ولد كانت عاليةً فاحتضنته الأم سريعًا.. تلك الصرخات التي ظلَّت تشق سكون الليل.

جاء طائر نورس باحثًا عن أمانٍ أسفل الجلد، فوقع بصرُ الأب عليه قال:

الله، نورس!

- ما رأيكِ نسميه نورس؟

- نورس اسم جديد.

ثم جرَّب وقع الاسم على مسامعه "نورس عبد البر خليل" حُلْو،لنستقر عليه.

كم مرة سمع "نورس" الطفل عندما كبر قليلاً تلك الحكاية، بل كم مرة رواها "نورس" الجد لأحفاده،

دائمًا ما كان يقول عنها: "حكاية مسلية جدّا".

ويجد أن الحظ لعب دوره المهم معه منذ بداية حياته، تخرَّج في كلية الآداب قسم صحافة جامعة القاهرة، عمل بالصحافة الصفراء، فتعلم صنع الخبر الأصفر الباهت وصناعة التشويش. انتقل من جريدة صفراء إلى أخرى.

رفع عينيْه، وجد النورس مُحلقًا فوقه يجوب ذهابًا وإيابًا، واضعًا جناحيْه في وضعية المستعد، فالسمكة الفريسة قد تظهر في أي وقتٍ.

"يا جمال الأبيض، مع منقار أسود بمقدمة الفم! "، قالها لنفسه والقشعريرة تملأه فخرًا بأنَّ اسم "نورس" قد يكون أول من يتولى رئاسة تحرير صحيفة قومية بهذا الاسم. تخيل مقعد الرئيس وأمامه لافتة يُكتب عليها: "رئيس التحرير.. نورس عبد البر خليل".

وعن أحقيته في هذا المنصب، تذكر أنه من الذين تعاونوا مع الأجهزة الأمنية، من القلة القليلة الباقية على عهد الوفاء سواء اليومي أو الأسبوعي. ثم إنَّ الرئيس الحالي على مشارف الستين، والأعين تتجه نحوه.. يا سلام! لو أضيف إلى منصب رئيس التحرير ورئيس مجلس الإدارة ليملك الدنيا بما فيها.

خرجت السمكة تتلوى، وهي مشبوكة في خُطَّاف الصنارة الحديدي ليضعها إلى جوار أخواتها، ممن يلفظن أنفاسهن الأخيرة في وسط البيت الثلجي الجديد.

مرت ساعتان وهمَّ بالرحيل مجمعًا كل أشيائه، الراديو والصحف والمجلات، يتبقى على غروب يوم 25 يناير ساعاتٌ قليلةٌ.

عاد نورس لشقته بالإسكندرية، وضع الأسماك بالثلاجة. كان أهل المنزل؛ زوجته وبعض أولاده يشاهدون التلفاز، وعيونهم مسلطة على المظاهرات والاضطرابات التي تضرب القاهرة اليوم، واللافتات مرفوعة: "عيش- حرية – عدالة اجتماعية".

تغدَّى ثم ذهب لسريره، لقد كان اليوم شاقًّا للغاية، وقبل أن يغفو ويستغرق في النوم، تذكَّر.. ولمعت عيناه ببهجةٍ:

يا سلام! "نورس عبد البر"، رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير!

وَدَاعًا أيُّهَا الزّعِيمُ

استيقظ رجلُ الدولة في ليلةٍ بلا قمرٍ على صوت رنين الهاتف:

ألو جناب القائد تعيش أنت؛ لقد توفي الزعيم منذ دقائق قليلة!

- إنها مصيبةٌ! هل عرف ابنه الكبير الخبر؟

- نحاولُ الاتصال به ولا من مُجيب.

- تمام.. سآتي على الفور.

وصل القائد، وجد جسدَ الزعيم مسجًّى على السرير، ساكنًا. لأول مرةٍ يراه ساكنًا! تأمل فمه الذي طالما قال وأصدر الأوامر والنواهي.

تيبَّس الدمُ واحتبس في العروق، لأنه لم يجد مفرًّا من الهرب إلا الآن، دمٌ كان يلف في دوراتٍ داخل جسده دومًا، تغير لونه بفعل الغضب، وأخيرًا استراح من عناءِ اللف.

سأل القائد ورجل الدولة:

هل عرف ابنُه الأكبر خبر الوفاة؟

قالوا: نعم لقد عرفَ وهو في طريقه إلينا الآن.

- لن نفعل أي شيءٍ قبل وصوله، فهو الذي سيقترح علينا ما سنفعل. دعونا الآن نتلو بعض الأدعية على روحه.

وقف الحرسُ متململين إلى جوار رجل الدولة يتلو بعض الأدعية.

حضر ابنُه متخذًا صفات والده، الذي طالما نهر وغضب وانفعل، وقال بعض الكلمات المقتضبة.

زعماء العالم كله لا بد أن يحضروا.. وجميع الشعب يكون في وداعِ الزعيم الأكبر.

(2)

ببعضِ الدموع الصناعية قالت مذيعةُ القناة الأولى بتلفاز الدولة السعيدة، البيان الذي تعلن فيه وفاة الزعيم والأب الروحي للشعب، حاولت كثيرًا استجماع كل دمعةٍ من أعماق أعماقها، إلا أنها فشلت في جلب دمعةٍ واحدةٍ حقيقيةٍ.

جاءت توصياتُ إلقاء خبر الوفاة شديدة الصرامة والحزم، في التأكد من حزن نبرة الصوت، مسح أي نوع من أنواع المكياج، بل ومن الأفضل وضع هالات سوداء أسفل العين. كل شيء فى مبنى التلفاز اكتسى باللون الأسود، لمدة يعلمها ابن الزعيم.

جميعُ الترتيباتِ أصبحت قيد التنفيذ، سيُقام حفلٌ شعبي مهيبٌ يضم جميع أطياف الشعب، وضع ابنه اللمسات الأخيرة للخطاب، الذي يعلن فيه بمزيدٍ من الأسى والجزع توديع الأب، والوفاء لكل المبادئ التي تربَّى عليها هو شخصيًّا والشعب كله.

في ظل تلك الظروف العصيبة، عجز البعض عن الوفاء بالحضور وكان منهم "فرحان بالأمر" وأسرته.

بدأت التحقيقات معه، فظلت الأسئلة تتدفق عليه وهو يُجيب بكلماتٍ قليلةٍ مثل:

لا.. أقسم لكم.. أنا مواطن صالح.. اتركوا أسرتي ترحل!

بعد صراعٍ، انتهت التحقيقات ولم يصلوا إلى نتيجةٍ معينةٍ، من أجل ذلك استمر حبسُ المتهم وأسرته على ذمة التحقيق.

الوقت لم يُسعف رجال التحقيق بأداء الواجب الوطني على أكمل وجه وحضور الجنازة.

كل إجراءات الدفن الشعبية أصبحت جاهزةً، ولم يعد شيءٌ باقيًا، سوى أن يُوارَى الزعيم الثرَى.

استعد الجميعُ هنا لتوديع فخامته المبجلة.

اصطفَّ الشعبُ رجالًا ونساءً وأطفالاً، لتودعه الجموعُ بأكاليل الورود والزهور. تم تلقين الأطفال درسَ كيف تودع الزعيم، كما اندسَّ جنودُ الدولة بين الحاضرين للتأكد من دموعهم وأنها حقيقية جدًّا.

خلت منازلُ العاصمةِ تقريبًا من كلِّ سكانها، ما عدا بعض العجائز والمرضى الذين اكتفوا بمتابعة الجنازة عبر التلفاز.

اجتمع الوزراء ورئيسهم، وإلى جوار ابن الزعيم الراحل، وقفوا مخفضين الرؤوس، وشعاع الحسرة اللائقة يلمع في عيونهم.

جاءت الشمسُ مشرقةً وعلى غير العادة، في أيام شتاء دولتهم القارس، الجو صافٍ وكأنه يومٌ ربيعي من أيام السنة، لم تشاركهم الطبيعة هذا الحداد بل على العكس بدت وكأنها مستريحةٌ.

أسرة "فرحان بالأمر" التي تأخرت عن الحضور تكونت من أب وأم وأبناء، حملت الزوجة اسم "سعيدة مشكور"، كالمعتاد أن تكون أسماء أبناء الدولة، تحمل شيئًا من السعادة أو فعلًا من أفعال الشكر.

تم إلقاءُ القبض عليهم في طريقهم للحضور مع بعضٍ من المتقاعسين الذين بحثوا عن مكانٍ للاختباء وفشلوا، وبعض المتأخرين أمثالهم، الذين حاولوا الوصول عبر الطرقات الجانبية أو الأزقةَ الصغيرة، ولكن هيهات أن تفلح المحاولات! تم إجهاضها ولم تُجدِ نفعًا، وتم ترحيلهم جميعًا.

في طريقهم إلى السجن ملأت مكبراتُ الصوتِ الساحة القريبة والمؤدية إلى السجن، وكلمة ابن الزعيم تزلزل أركان الشوارع والأزقة:

وداعًا أيها الزعيم فنحن لك أوفياء.. الكل هنا واحد.

زَوْجَة القِط الرَّمَادِي

ذكرت جريدةُ التحرر في مطلع أخبارها الأسبوعية..

أن قطةً من قطط الميدان تركت قطها الرمادي وانطلقت بين السيارات والباصات المكدسة بالبشر المتلاحمين ثم وصلت كوبري قصر النيل.. يذكر الخبر انزعاج القطة من أسديْ قصر النيل حتى وجدت في اَخر الكوبري أسديْن اَخرين شامخين.

ركضت بكل قوتها وفي ركضها هذا لمحت فأرًا، يُحاول الاختباء داخل إحدى فتحات الكوبري.

ركضت خلفه لعل وعسى، ولكن دون جدوى..

دخل في أضيق فتحةٍ، حاولت مدَّ البوز لم تصل حتى لأول مدخل الفتحة..

عادت القطة في محاولةٍ منها للوصول لقطها الرمادي القابع على حشائش ميدان التحرير..

لمحها كلبٌ ضال يجوب الشوارع المحيطة بالميدان، عندئذ بدأ الكلبُ ينبح ثم وضع في قلبه رأس تلك القطة البيضاء.

كشَّر عن أنيابه وثغره المتلون بالبمبي.

بدأت المطادرة ظلت تبحث كسمكةٍ خرجت لتوها من الماء، تبحث عن مياه تردُّ إليها نفسَها.

المحلاتُ مغلقةٌ، الفتحاتُ تكاد تكون منعدمةً، كل الأشياء مغلقةٌ بإحكامٍ،

تلامست أقدام الكلب مع أطرافها الصغيرة.

جرت بعضُ الصور في مخيلتها عنٍ أحداثها مع القط الرمادي، وضياعهما من بعضهما فترةً من الفترات، ثم التقيا من جديدٍ، وأنجبا قططا، تفرق معظمها عنهما ورجعا معًا بمفرديهما.

اصطدمت بقاعدة تمثال طلعت حرب..

المواء القطي يزداد مواءَ، يتسرسبُ إلى مسامع ساكني الميدان، مواء لم يكن عاديا، مواء مَن تستغيث.

مرَّت القطةُ بين صفين من البشر، صفٍ مرتدٍ خوذاتٍ ممسكٍ بعصيٍّ مرتدٍ اللون الأسود، وصفٍ اَخر من البشر من رجال ونساء وبعض الصبية.

مرقت القطة بينهما، لكن الكلبَ عاد عندما استشعر التهاب الأوضاع وتأهب الطرفين للاشتباك.

ركضت القطة وقبل اَخر قدمٍ لها عبورًا بينهما وقع الاشتباك، وانهالت العصي على الصف المتنوع.

القطةُ ما زالت تهربُ من دهس الأقدام، حتى نجت من الدهس بأعجوبةٍ.

خسرت بعضًا من طرف ذيلها، بينما لوَّنت القنابل المسيلة للدموع لونها الأبيض بلون رمادي يقترب من السواد.

القط الرمادي لم يكتف بالندب أو المواء المتقطع، أخذ على عاتقه البحث، وما زال البحث جاريًا عنها حتى الاَن.

انتهى الخبر، وطويتُ الجريدةَ وأكملت السير.....

*تِلْك الشَّمْسُ

أَلْعَابُ الشَّمْسِ

وقفَ البعضُ منهم كأعوادِ حطبٍ والبعضُ الآخر كسنابل قمحٍ ذهبيةٍ.

احترقوا في الشمس مراتٍ عديدةً وقبل الانصهار بقليلٍ سبحوا، وقبل أن يلونهم القمر باللون الفضي رجعوا إلى منازلهم، اختاروا الشمس كأسهل وأرخص حل ممكنٍ للعب، وهي بكل بساطةٍ لم تدعهم ينتحبون؛ بل كانت تشاطرهم بالضوء وتطوق أعناقهم به، حتى العُشب النامي حول الترعة عندما يجلسون عليه يجففهم كمنشفةٍ قطنيةٍ كثيفة الوبر.

سبحوا بأجسادهم النحيلة في الترعة في أيام حارةٍ على أنها بحرُ القرية، تشابهت ظروفهم مع القطن الصيفي وقت الجنْي، ارتفعوا وقت الشروق وأصابتهم لوثة عباد الشمس نحو الضوء الصباحي، حيث وجبت عليهم المتعة واللهو بل والفرح.

في الصباح يجدون الشمس، فتجدهم هي بابتساماتها البيضاء المعشّقة باللون الأصفر، يمدون أيديهم ويمسكون الشعاع ويلتفون به، فيسبحون في الشمس وفي الترعة معًا.

جال الشعاعُ على وجوههِم قبل قليلٍ حتى وضع فيهم شيئًا منه.

اليوم يومُ الاختبار والجميعُ في الصف له متعته الخاصة منها، الحطب وكعادة الحطب ضعيف احترق منها وبقيت السنابل.

جاء المشرف لينادي الأسماء، كان اليوم بلا شك يوم تحليل البلهاريسيا..

لينضم إلى مُشرف الصحة ناظر المدرسة كرجالٍ للفرز.

جاءوا كرجالٍ يجمعون الحشائش الضارّة من قلب المجتمع الأبيض، رجال تستخرج اللؤلؤ من قلوب المحار.

جاء وقتُ تحليل البول، ولكل طالبٍ كوبٌ، تكفي قطراتٌ بسيطةٌ تُوضع تحت المجهر، فتشير إليه بالبراءة أو الجرم.

العيّنات حاليًا تحت المجهر.

ما بين شك ورجاء وقف الحطب؛ ربما أخطأت الدودة السكن في تلك المرة، وعلى رجاء الخطأ والانتقال من خانة الحطب ولو مؤقتًا إلى خانة السنابل انتظروا .

لكن جاءت الأسماء كما المتوقع، وصارت السنابل في صفٍّ والحطب في صفٍّ، في ملفاتٍ رسميةٍ حكوميةٍ تم تدوين أسماء الطرفين.

بدأ استهزاءُ السنابل بالحطب في ظل خجلٍ وكسوف الأخير.

تمنوا أمنيةً.. أن تنشق الأرض وتبتلعهم..

توزع أقراص العلاج مع دعواتٍ بالشفاء.

فتساءل الأطفالُ: متى تموت في الحقيقة؟

بالأقراص أم بموت الحطب نفسه؟!

لتعاودَ الشمسُ ألعابها مع مجموعةٍ أخرى من الحطب، يلعب الصغار ألعاب الشمس من البداية، تصدر إليهم البهجة، حتى كبار الحطب يرفعون وجوههم إليها عند الشروق ويتعجبون من الغروب وقت الحاجة والمتعة!

دُمُوعُ زَهْرَةِ الشَّمْسِ

- العلاجُ لا يُناسبُ حالتك؛ لقد صارت الحالةُ ميئوسًا منها!

بعبوسِ الوجه الصامت الذي لا تتحرك فيه أي عضلةٍ من العضلات، أبلغ دكتور "فخري" "زهرة" أنَّ محاولَته لعمل ترقيع لغشاء البكارة فشلت.

دماءُ الحمام، دماءُ الأرانب، هناك شيء ما يفشل! "زهرة"، أي طبيب سيقول نفس الكلام، لا تضعي أمولك في شيء لا طائلَ منه.

السؤال تحرَّك في عينيها بخطواتٍ سريعةٍ حتى وصل إلى مقدمة اللسان:

لماذا نجح مع أخريات؟!

- هذا هو حظك.

تشققت خدودُها بعد الخروج من عند الطبيب، حتى إنَّ معنى كلمة طبيب فقدت معناها لديها.

انصرفت "زهرة" للتواري متخذةً من اسمها بعض صفات الزهرة، لتستعدَّ للذبولِ وتفقد تلك التلقائية التي طالما أحاطت بها عند شعورها بالماء الجاري، وخضعت لانحناء الطبيعة عليها المثقل بالندى الصباحي.

تساءلت: هل تنفع الصلصة في حالتي أو صبغة حمراء أضعها بين فخذي.

قالت إحدى الصديقات إنّ هناك أنواعًا جديدة من الأغشية مستحدثة تملأ الأسواق حاليًا، أغشية ممنوع تداولها بمصر مهربة توضع على مقدمة العضو وتؤدي نفس المهمة تقريبًا.

هتفت زهرة:

العين أهم شيء، وأن تُصدق تلك الأغشية الجديدة!

- أغشية تقبلها العين وتقتنع، لا تنزعجي!

(2)

انهالت القُبل على الشفاه حتى جعلت رسم الشفاه الأحمر ملطخًا حتى تلاشى، وانطبع على خد وفم "سيد الوسلتي"؛ سُمي بالوسلتي لأنه يعرف الوسيلة المناسبة لكل حدثٍ ويعرف أن يستغله، واتبع مع "زهرة" دستورًا ذاتيًّا نفذه باحترافٍ.

- أحبك يا زهرة، أحبك يا زهرة!

- أحبك يا سيد.

ياء المُنادى كانت ياء للبعيد وكأن شيئًا ما يبتعد ولا فائدة من المناداة، غاصوا في أجساد بعضهما البعض في مراتٍ شديدةِ الوحدة للطرفين، حيث قاد "سيد" الموقف من فوق وقادت "زهرة" الموقف من الأسفل فضاع كل الغشاء....

صَاحِبُ الشَّمْسِ

استيقظ "جلال" فوجد من يتلحف الغطاء إلى جواره، فسأل نفسَه يا تُرى مَن هذا؟ فهو متأكدٌ تمام التأكد أنه نام بالأمس بمفرده، فردَّد بحذرٍ:

يا أستاذ!

لم يُجِبْ أحدٌ. كرر العبارة: يا أستاذ! فلم يُجبْ أيضًا، وهنا أخذ قرارًا بكشف الغطاء، فأسفرَ عن ضوءٍ ساطعٍ خارجٍ من شكلٍ كروي يُشبه الشمس.. مفاجاة أذهلته! أرجع الغطاء كما كان حتى يستوعب تلك الصدمة.

يا ترى ما هذا؟

نظر من النافذة التي تركها مفتوحةً بالأمس؛ لم يجد الشمس وما زال الليل يُخيم مع أن الساعة الآن تُشير للسابعة صباحًا.

تأكد أن الشكل الكروي المشع هي الشمس، قرَّر أن يزيح الغطاء عنها ويلمسها، لمسها فوجدها دون حرارةٍ، حملها بين يديه فوجدها يمكن تصغيرُها إذا ضغط عليها حتى يستطيع حملها في جيب قميصه!

وضعها به، أراد أن يُخفي ذلك عن الآخرين، فلم يشأ تركها وحيدةً بالغرفة. كل قبسٍ من شعاعٍ يفرُّ من قميصهِ بين حينٍ وآخر، وكل قبس نور يفج من بين أليافِ القميص القطنية.

ضغط بكلتا يديْه على رأسِها لتنفذ في أعمق نقطة من الجيب.

كل المحاولات باءت بالفشل، وعرف الجميعُ بالخبر، تأمله جميع الناس في الشوارع التي مرَّ بها، لم يشأ ركوب مواصلةٍ عامةٍ بل سار على قدميْه.

ذهب لشراء علبة سجائر، البائع لم يسأله الحساب بل سأله أن يرى كيف تبدو الشمس عن قربٍ، فرفض بشدةٍ.

سار في طريقه حتى وصل عمله، ترحابٌ حار به من أصدقائه بالعمل، وقفت أمامه زميلته الهدباء تُحاول إقناعه بوضع الشمس على المكتب ربما تحرق حرارتها قلبه.

دخل إليه الساعي يُخبره أن المديرَ يستدعيه.

عقد المدير حاجبيْه، وقال:

أستحلفك بالشتاء! ألم ترتعش أطرافُ قدميْك أو أنامل أصابعك من قبل؟! اتركها لأن أطرافنا تشتاقها. قال المدير، وكاد يجثو! لكنه تراجع.

لم يُجِبْه وخرج دون استئذانٍ.

في نشرة المساء:

"اختفاء الشمس تاركة خلفها مكانها خاليًا!"

بينما هو وضعها إلى جواره، على سريره استلقى، وتمتم ببعضِ عبارات الغزل العفيف، لم ينَم ولم تنَم؛ ظلا طوال الليل يحكيان.

قبل الفجر بقليلٍ ودَّعته وألقت تحية سلام، وشاءت ألا تخذل منتظريها ليومٍ آخر.

استوعب الناسُ هذا الدرس فبنوا مخازن ضخمةً بدافع ادِّخار الشمس، عملوا حسابًا ليومٍ مثل هذا الذي مضى..

المَرْأة التِي عَلقتِ الشمْسَ

عند الهضبةِ الشرقيةِ للنيل، تكون الهضبةُ أقرب إليهم من أي شيءٍ آخر.

في رحلات الزفير والشهيق يستنشقونها، فقد صارت جزءًا من صدورهم المتحجرة، حتى إنَّ الدورة الدموية داخلهم تلف في سككٍ أخرى خلفها، أمسى الغبارُ الأبيضُ من المَحْجَر صديقًا يوميًّا حميمًا، يشربونه مع السجائر والشاي، خليطًا من أجود أنواع الغبار.

في العادة كل صباح، يفرشون الشمس بساطًا ثم يمشون فوقه، يتدحرج العرقُ من الجبين إلى الأسفل، ولا يجد عوائقَ في رحلةِ نزوله سوى بعض البروزات والنتوءات في أجسادهم.

أطفالهم الرُّضع بتلك الأفواه المفتوحة على مصراعيْها، ترضع لبن السرسوب المُرَّ الدافئ، عندئذٍ يتحوَّل كل ثدي إلى مجرى مائيٍ عذب، ينافسُ النيل ويسير بمحاذاته، لا تصبُّ الأثداء في البحر كالنيل، ولكنها تصبُّ في البلعوم مباشرة، فتُعَزي عن الجوع.

بين حينٍ وآخر يُهاجمُ الجوعُ ويفترسُ بعضَ الصبية، بينما يُقاوم البعضُ ويأكل أوراق الشجر والفروع، ولكن ليست كل الفروع تصلح.

النساءُ لديهم اعتنين بالجمال وكعادة النساء بالجمال، حتى الفراشات السابحات في الفضاء لم تسلم من محاولات نقش الجمال، تولى البعض منهن صيدها، تَفرَّسن في الأجنحة واشتهرت جملة لديهن:

"يا سبحان الله! كأن الفراشة الواحدة تُلون نفسَها بنفسِها وتختارُ كل الألوان".

التحدي الصعب كان أن يعد العالم عدد الألوان التي رُسِمَت عليها.

كل امرأةٍ فيهن لها قصةٌ ما، إلا أن أشهر قصة منهن قصة تلك المرأة التي جلست القرفصاء خلف بابها ولا تعرف هل تندبُ أم تَهذي؟ أجمع الجميعُ بمن فيهم الرجال والأطفال أنها تقترب من الجنون.

بعدما رسمتِ الشمسَ على حائطٍ قديمٍ إلى جوار سريرها، وظلت مستغرقةً متأملةً كل جزءٍ فيها.

رسمت الشمسَ مرتين أُخريَين، مرة على باب منزلها وكتبت:

"الشمس تشفي مرضى الاكتئاب".

لونت الشعاع باللون الأخضر، سألوها عن سبب الأخضر، لم تُجبْ واكتفتْ بابتسامةٍ باهتةٍ وإجابةٍ واحدةٍ في صدرها المشتعل بالدفء.

"الشعاع أخضر وكل شيء أخضر.. أنا خضراء! "

وفي المرة الثانية رسمت الشمسَ على عيون حمامتين تطيران، وألقت بالرسمةِ من الهضبة، ظنًّا منها أن الورق يطيرُ دون جَناح.

علقت صور الشمس في المطبخ وأكلت أجزاءً منها، شربتها مع قدح الشاي الأحمر، علقتها بدلًا من المروحة في الصيف، وبالشتاء تسربلت برداءٍ مُرصعٍ بها ونامت، آخر رسالة تركتها عبارة عن وصيةٍ:

"إلى جوار ذات الشعاع الأخضر أُدفن"...

أمِيرُ الشمْسِ

لم يبقَ أمامهم سوى عم "فاكر" يرجعون إليه دائمًا في كل كبيرةٍ وصغيرةٍ بعد وفاة والدهم، قرَّر الأبناء بيع الأرض وما على عم "فاكر" سوى أن يبحث عن مشترٍ، هو لمن لا يعرفه يُشبه عباد الشمس في صلته بالشمس، رجل نهاري ينام بعد العِشاء بقليلٍ، يُوصفُ بالمزارع المجتهد، نموذجٌ مثالي في الفلاحة الحقَّة، يفهم تضاريس الأرض، يده نفسها يُكتب عنها حكايات؛ مشققة وكأن بها ينابيع مياه تتفجر، يحفظ تاريخ القرية عن ظهر قلب، جلس كواحدٍ من الأمراء.

شرحوا أسبابَ البيع التي تلخصت في ضيق ذات اليد، حكوا عن أطفالٍ تجوع وتمرض، ثم عن فرصة عمل بالخارج، نظر "فاكر" إليهم واسترسل خياله في فكرة السفر، دخلت صينية الشاي ودعاهم إلى الغداء.

- عارفين ولاد "محسن أبو ربيع"، سافروا ومرَّ العمر ولا صنعوا أي كرامة!

قالوا:

كرامة!! ـ ـ أبوكم الله يرحمه عرق وشقي في الأرض؛ لو العرق ينفع يكون شجر كان صار أكبر شجرة! لستُ سمسار أراضٍ، أنا فلاح! قال الكلمتين الأخيرتين بحسمٍ، ووقف على قدميْه بشموخٍ بحركة لا إرادية!.

رحلوا والخيبة تملأ صدروهم والبيع والسفر شيء حتمي، هي فقط مسألة وقت لا أكثر ولا أقل فقالوا:

الناس هناك قربت تشرب البترول بدل الماء!!!

الجُثْمَانُ الشَّمْسِي

طعنوه كانوا لصوصًا أو انتقام شخصي أو حتى من قاطعي الطرق لا يدري أحدًا، ألقوا به من التل، فهوى طائرًا بلا أجنحةٍ، سقط على رمالٍ ساخنةٍ فتفاعل الجلدُ الناشفُ مع الرمال، حتى إن الجلد بدأ في الذوبان مع عناصره.

دخلت الشمس تطعنه بالشعاع، وتنشف آخر القطرات من الدماء..

سقطت بطريقةٍ عموديةٍ عند الظهيرة، صارت لا تقبل إلا بحفرِ نفسها عند مدخل القلب، مثبته كل ذرةٍ من الشعاع على شرايين الجثمان القلبية.

وبعد قليلٍ حرَّكت الريح الجثمان، ليبدأ رحلة سقوط من جديدٍ، يتدحرج ويحمل رمالًا، صار الجثمان مثقلًا نصفه رمالي ونصفه الآخر جلدي، ألبسه الرمل وكساه باللون الأضفر وحبات خشنة زينت الجلد.

طيرٌ يُحلق جذبته ثقوبٌ في جثمانٍ مُسجَّى على أرضٍ رمليةٍ، واضعًا أفكاره في صيدٍ ثمينٍ يسدُّ به جوعه.

عندما اقترب تحرَّك الجثمانُ وتمايل في حركةٍ بهلوانيةٍ، داعب فيها الريح المرسلة من تصادم الهواء في

حلقات من الفراغ، توقف منقار الطير المهاجر عن الفتح والإغلاق، حتى يرى ماذا يحدث لجثمان يتلوى في دوائر حلقيةٍ من الرمال.

وقع بصرُه على رمادٍ أسفله ورائحة نفاذةٌ عميقةٌ تتغلغلُ في أنفه، تُحيل كل اقتباض في معدته إلى حسرةٍ، يبدو وإن الجثمان محترقٌ ولم يعد يصلح لشيء.

تحرَّك الجثمان وتدحرج ككرةٍ من الرمل ما بين صخرةٍ وتل صخري اصطدم به، تساقطت الدماء بغزارةٍ وكأنها نفورةٌ دمائية، كانت شديدة الحمرة، كشفت عن سريان خطوط الدم في مساراتها المعتادة..

هو لم يمت؟!

ما زال الجثمان يُخبئ الأحمر في طياته وقليلٌ من الماء انساب منه، لو لم ينفع الطير قد ينفعه لحسُ الدماء ويمص قليلًا من دماء الجثمان.

تصور خلفه بنظرةِ عين ثاقبةٍ.

ظن أن خلفه نهرًا صغيرًا يجري أو لعله رافدٌ يُفضي إلى بحرٍ، ومنه إلى محيطٍ ومنه إلى بلاد خضراء أو حتى بلاد لا تعدم طيورها بالندرة.

هبط الطيرُ على أرضِ الجثمان، وقف على خصيته ثم أكل الخصوبة وشبع.

ظل الجثمانُ بلا خصوبةٍ لمدةٍ من الزمن، ثم تولت الشمسُ آخر جزءٍ من مهمةِ إخفائهِ، بينما الريحُ تولت مهمة غباره، طيَّرته بعيدًا حتى ضاع.....